الفصل الأول
السياسة والمجتمع

١

فتح العرب للشام والحقب[1] الأولى

(أ) فتح العرب للشام

تقع الشام فى قلب الشرق الأوسط وَسَطَ العالم القديم على أبواب آسيا الغربية وشواطئ البحر المتوسط ، وهى سهل ساحلى يمتد من خليج إسكندرونة فى تركيا شمالا إلى طورسيناء جنوبا ، ومن البحر المتوسط غربا إلى بادية الشام شرقا ، والشام بذلك تشمل سوريا الحالية ولبنان وفلسطين وشرقى الأردن . وتجرى فيها أنهار صغيرة أهمها العاصى المتجه إلى الشمال فى سوريا ، والليطانى المتجه إلى الجنوب ، وبَرَدى المتجه إلى الشرق مكونا بساتين دمشق المسماة بالغوطة ، ونهر الأردن الذى يصب فى البحر الميت ، وفى أطراف الأردن الشمالية بحيرة طَبَرِيَّة . وبجنوبى دمشق هضبة حوران . وفى شمالى الهضبة الشرقى منطقة اللجأ وفى جنوبيها الشرقى جبل الدروز . وتنساب الشام شرقى حوران والأردن فى بادية الشام المتممة لصحراء العرب . ومن قديمُ يُزرَعُ بها القمح والزيتون والتين والفواكه ، وبها فى الشمال أشجار النُّقْل المختلفة وهيأ ذلك أهلها لكى يعرفوا الاستقرار من أعتق الأزمنة ، كما هيأ البلاد لاندفاع بدو الجزيرة العربية إليها ، إذ تفيض عسلا ولبنا . وقد اندفعوا إليها فى شكل هجرات كبيرة ، لعل أقدمها هجرة الأموريين إلى شماليها حوالى منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد ، وتلتها – وربما صحبتها – هجرة الكنعانيين أو الفينيقيين إلى السهل الساحلى . وقد استولى تحوتمس فرعون مصر حوالى سنة ١٤٤٠ ق . م على جزء كبير من الشام ، وظل الأموريون والفينيقيون خاضعين لمصر نحو قرن إلى أن شُغلت عن ممتلكاتها فى الشام لعهد

---

(١) انظر فى تاريخ الشام القديم وزمن الدولة الأموية والولاة العباسيين كتاب تاريخ سورية ولبنان وفلسطين لفيليب حتى (الترجمة العربية نشر دار الثقافة ببيروت) وراجع فى فتوحها وتاريخها الإسلامى تاريخ الطبرى وابن الأثير ، ومروج الذهب للمسعودى والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى والمغرب (قسم القسطاط) لابن سعيد وتاريخ ابن خلدون وتاريخ الدولة العربية وسقوطها لڤلهوزن وتاريخ العرب – مطول لفيليب حتى (الترجمة العربية) وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان (نشر دار العلم للملايين) .

إخناتون بسبب ثورته الدينية المعروفة . وتفد على الشام هجرة كبيرة من الجزيرة العربية هى هجرة الآراميين إلى الشام الأوسط ومنطقة دمشق وهجرة العبرانيين إلى فلسطين .

ولم يكوِّن الفينيقيون لأنفسهم دولة فى السهل الساحلى بل ظلوا جماعات صغيرة لكل جماعة أميرها فى طرابلس وجبيل وبيروت وصيداء وصور وعسقلان وغزة ، وكانوا شعبا بحريا تجاريا ، وازدهرت تجارتهم بين القرنين العاشر والثامن قبل الميلاد ، وكوَّنوا لهم مستعمرات فى إسبانيا ومراكز تجارية فى كورسيكا وسردينيا وصقلية وكريت وساموس فى اليونان . وقضى على النشاط التجارى لهذا الشعب الفتح الأشورى فى القرن الثامن قبل الميلاد . وكون العبرانيون لأنفسهم مملكة أورشليم فى القرن العاشر ق . م . وفيه بلغت ذروتها لعهد داود وسليمان ، ثم أخذت فى الضعف حتى قضى عليها الأشوريون فى القرن الثامن ق . م . ودمر بختنصر أورشليم فى القرن السادس ق . م . وجلاهم عنها إلى بابل ، حتى إذا سقطت دولة بابل سنة ٥٣٩ ق م . أذن كورش لمن يريد منهم العودة إلى أورشليم أن يعود . وظل الشام منذ هذا التاريخ تابعا للدولة الفارسية إلى أن فتحه الإسكندر المقدونى سنة ٣٣٤ ق . م . وتولَّت بعده شئونه دولة السلوقيين اليونانية حتى انتزعه منها الرومان فى القرن الأول ق . م . ولما انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى غربية وشرقية كان الشام من نصيب الامبراطورية الشرقية وظل تابعا لبيزنطة حتى استخلصه العرب منها .

وقد استطاع العرب الشماليون أن يقيموا مملكتين أو إمارتين لهم فى أطراف الشام : إمارة النبط فى شرقى الأردن أقاموها منذ القرن الثالث ق . م وكان لها عاصمتان : بَطْرًا فى الجنوب بشرق الأرْدُنّ وبُصْرَى فى الشمال بالقرب من دمشق ، وكانت تتكلم العربية فى أحاديثها اليومية بينما كانت تكتب نقوشها بالخط الآرامى ، وقضى الرومان على استقلالها سنة ١٠٦ للميلاد وضموها إلى دولتهم الرومانية . والمملكة الثانية مملكة تَدْمُر شمالى بادية الشام ، وبلغت أوجها فى القرنين الثانى والثالث للميلاد وخاصة فى عهد أميرها أُذَيْنة ، وقد نصبه الرومان ملكا على سوريا جميعها وعادوا فى عهد زوجته الزباء ، فقضوا عليها وعلى الإمارة فى سنة ٢٧٣ للميلاد . ولم تلبث قبيلة عربية أن شَقَّت طريقها إلى منطقة حوران جنوبى دمشق ، وهى قبيلة الغساسنة واستطاعت أن تقيم لها إمارة ، ولم تكن لها عاصمة مستقرة ، فقد كانت تنتقل من مكان إلى آخر ، فمرة تتخذ عاصمتها فى الجولان ومرة فى جِلِّق أو الجابية ، وكانت موالية لبيزنطة وتحارب فى صفوفها ضد إيران وعرب الحيرة . ومن أهم أمرائها الحارث بن جبلة وهزيمته للمنذر صاحب الحيرة يوم حَليمة بالقرب من قِنِّسْرين سنة ٥٥٤ مشهورة وفيها خرَّ المنذر صريعا . وما نصل إلى أواخر القرن السادس الميلادى

حتى تتمزق وحدة هذه الإمارة ، ويتوزع أجزاءها غير أمير . ونستطيع أن نميز بينهم النعمان بن الحارث ممدوح النابغة وأخاه عمرو ممدوح حسان ، ولحق منهم الفتوح الإسلامية جبلة بن الأيهم وأسلم ، ثم تنصر ولحق ببيزنطه .

وحين دخلت الجزيرة العربية جميعها فى دين الله الحنيف وانضوت تحت لوائه أحست دولة بيزنطة فى الشام ودولة الفرس فى العراق بأنها قوة ينبغى أن يُدْرَأ خطرها . وهو ماجعل أبا بكر الصديق يبادر بتجهيز الجيوش لتجاهد فى سبيل الله ونشر دعوة الإسلام الدولتين الكبيرتين قبل أن تتآزرا على حرب الإسلام والمسلمين فى الجزيرة شرقا وشمالا . وكان الفساد قد استشرى فى حكم الدولتين واستشرى معه ظلم الرعية والبغى الأثيم . واستولى المسلمون من الفرس سريعا على جنوبى العراق ، وتوالت انتصاراتهم عليهم ، وبادر الصديق فسيَّر فى سنة اثنتى عشرة للهجرة جيشين لحرب البيزنطيين أو الروم فى الشام : جيشا بقيادة يزيد بن أبى سفيان إلى البلقاء فى شرق الأردن ، وجيشا بقيادة عمرو بن العاص إلى الجنوب الشرقى من فلسطين ، وكتب إلى خالد بن الوليد فى العراق أن يلحق بجيشى الشام ، فلحق بهما وتولى قيادتهما ، وفتَح بُصْرى شمالى البلقاء . ونازل الروم فى أجنادين بفلسطين بين بلدتى الرملة وبيت جبرين الحاليتين ، وهى أول معركة كبرى بين العرب والروم ، وفيها سحقهم سحقا ذريعا ، وتقدم إلى الشمال حتى دمشق وظل محاصرا لها حتى استسلمت . وجمع الروم صفوفهم فى اليرموك أحد روافد نهر الأردن فدمرهم خالد وجنوده ولم تقم لهم بعد ذلك فى الشام قائمة وفتحت بلدانها جميعا أبوابها للعرب المنتصرين . وبذلك استولى العرب على الشام فى نحو سنتين .

وخرج عمر بن الخطاب فى سنة ١٦ إلى الجابية – جنوبى دمشق على مسيرة يوم منها – وهى إحدى عواصم الغساسنة كما مر آنفا ، وبها عقد مؤتمرًا ضَمَّ ولاة الشام وقوادها لتنظيم الإدارة فى ديارها ، وفتحتْ له القدس أبوابها ، وأمَّن عمر النصارى بها ورهبانها على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وحريتهم الدينية ، والتمسوا منه أن يُخْلى القدس من اليهود وأجاب ملتمسهم ولم يبق بها يهودى . وقسم الشام إلى أربعة أجناد : جند الأردن وجند فلسطين وجند دمشق وجند حمص ، وزيد فيما بعد لعهد الأمويين جند قِنسِّرين والعواصم والثغور . واشتهرت سنة ١٨ للهجرة باسم سنة طاعون عمواس ، وكانت بلدة بين نابلس والرَّملة الحاليتين ، وفيه توفى أبوعبيدة بن الجراح ومعاذ ابن جبل ويزيد بن أبى سفيان والى دمشق ، وولاها عمر بن الخطاب بعده أخاه معاوية . وامتد لواء ولايته لها فى عهد عثمان حتى شمل الشام ، وعمل على الاستعانة ببدو الشام فى

شئون الإدارة مما جعلهم يلتفُّون حوله ، وظهر ذلك سريعا حين تولى الخلافة على بن أبى طالب ، وعزله ،. فإنه سرعان ماطالب بدم عثمان وناصره بدو الشام .

وتطورت الظروف سريعا إلى أن نشبت حرب صِفِّين بين معاوية وبين على بن أبى طالب كما هو معروف ، حتى إذا أيقن معاوية بالهزيمة أمر جنده – استجابة لمشورة عمرو بن العاص – أن يرفعوا المصاحف على أسنة رماحهم داعين إلى الاحتكام إلى كتاب الله . ورضى على وأُقيم حكمان للفصل بين الطرفين : أما جند على العراقيون ، فاختاروا أبا موسى الأشعرى ، واختار معاوية وجند الشام عمرو بن العاص ، ويروى الجاحظ أن معاوية قال له : « ياعمرو إن أهل العراق قد أكرهوا عليا على أبى موسى ، وأنا وأهل الشام راضون بك ، وقد ضُمَّ إليك رجل طويل اللسان قصير الرأى فأجدِ الحزَّ وطبِّق المَفْصِل ، ولاتلقه برأيك كله » . وصدق حَدْس معاوية فقد استطاع عمرو أن يقنع أبا موسى بعزل على عن الخلافة لوقف الحرب وحقن دماء المسلمين . وأُعلن الحكم ، وانقسم جيش على : فرقة معه وفرقة سَمَّت أنفسها الخوارج ، وهو أول ظهورهم فى التاريخ الإسلامى وحاربهم ونكَّل بهم ، ولم يلبث أن اغتاله خارجى أثيم . وبذلك خلا الجو لمعاوية وخاصة حين أعلن الحسن بن على تنازله عن الخلافة له . وقد بايعه جنده وأمراؤه بالخلافة فى بيت المقدس واتخذ دمشق حاضرة لخلافته .

(ب) زمن الدولة الأموية

أسس معاوية فى الشام الدولة الأموية وتوزعها فرعان : فرع سفيانى نسبة إلى أبى سفيان ، معاويةُ على رأسه وابنه يزيد ، وفرع مروانى من البيت الأموى نسبة إلى مروان بن الحكم ومن خَلفه من أبنائه وأحفاده . وكان معاوية بعيد النظر سيوسا حازما ، وكان له بصر بالشخصيات من حوله ، فاستعان بطائفة من صفوة الحكام فى مقدمتهم عمرو بن العاص فى مصر ، والمغيرة بن شعبة الذى ولاه الكوفة ، وزياد بن أبيه الذى اختاره للبصرة وإيران حتى إذا توفى المغيرة ضم إليه الكوفة وقد استطاع زياد أن يقضى على معارضة على فى شرقىّ الدولة وأن ينشر فى ربوعه الأمن . ووجه معاوية حملات مختلفة إلى بيزنطة واستطاع حصار القسطنطينية مرتين ووجه حملة بحرية إلى قبرس ، وكانت دمشق قاعدة الخلافة فى زمنه وكان يستعين بأهل الشام فى شئون الحكم وعمها الرخاء . وشمل المسيحيين بتسامح واسع واتخذ لنفسه مستشارا ماليا منهم هو سرجيوس ، إذ وكل إليه فيما يقال الشئون المالية . ويبدو أنه كان حاكما لدمشق قبل فتحها . على كل حال استعان به

معاوية فى الشئون المالية لدمشق ، وظلت أسرته بعده فى خدمة الأمويين فكان ابنه يشرف على الخراج لعهد عبدالملك ، وبالمثل استعان الأمويون بحفيده ، وفى عهده توغل عقبة بن نافع – ابن خالة عمرو بن العاص – فى البلاد المغربية ، وأسس فى وسطها القيروان بتونس ، وواصل فتوحه فى عهد معاوية وابنه يزيد حتى أشرف على المحيط الأطلسى .

ولما خلف معاوية ابنه يزيد أبَى البيعة له عبدالله بن الزبير ولاذ بالحرم المكى ، كما أباها الحسين ابن على واتجه إلى العراق ، فلقيته طلائع جيش لعبيد الله بن زياد والى العراق قبيل دخوله الكوفة فى «كَرْبلاء» غربى الفرات ولما أبى الاستسلام نازلوه واستشهد الحسين ومن كان معه من أهله وأنصاره مما كان له أكبر الأثر فى التطور السريع للشيعة ، ولايخلو ضريحه طوال العام من حُجَّاجهم إليه حتى اليوم . وكانت المدينة قد انضمت إلى ابن الزبير فأرسل يزيد إليها جيشا بقيادة مسلم بن عقبة فنكل . بها وفى طريقه إلى مكة لحرب ابن الزبير توفى وخلفه حصين بن نمير السَّكونى ، فمضى حتى حاصر ابن الزبير بمكة وجاءه نعى يزيد بن معاوية ، ففكَّ عنها الحصار وعاد بجنده إلى الشام . وخلف يزيد ابنه معاوية وتوفى بعد أربعين يوما من خلافته . واضطربت العراق ، واضطر واليها عبيد الله بن زياد إلى مبارحتها ، وانتهز الفرصة مروان بن الحكم واعتلى عرش الخلافة يؤيده بدو الشام من اليمنية وأبى بَدْوُها من القيسية مبايعته وهزمهم فى موقعة مَرْج راهط ، وتبعته مصر ، أما العراق فظل الاضطراب سائدًا فيها ، وبايع قسم منها ابن الزبير وقسم تحرك للطلب بدم الحسين وكان عبيد الله بن زياد فكر فى العودة إلى العراق على رأس جيش فقضى عليه هذا القسم ، وحاول المختار الثقفى والى الكوفة أن يجمعه تحت لوائه وقضى عليه مصعب بن الزبير والى أخيه عبدالله على البصرة .

وكان مروان بن الحكم قد توفى وخلفه ابنه عبدالملك وسر سرورا عظيما لما حاق بالمختار الثقفى وجنوده على يد مصعب ، وأخذ يتحين الفرص للقضاء عليه فى العراق وعلى أخيه عبدالله بن الزبير فى مكة والحجاز ، أما مصعب فذهب إليه عبدالملك فى سنة ٧١ للهجرة على رأس جيش ضخم ، وقضى عليه ، وبايعه العراقيون . وأما عبدالله بن الزبير فأرسل إليه الحجاج فى جيش كثيف ، ومازال به حتى تفرق عنه أصحابه ، وظل يستبسل فى قتال القوم حتى خرَّ صريعا . وقد عُنى ببناء المسجد الأقصى وتعريب إدارة الدولة واستطاع أخوه عبدالعزيز واليه على مصر أن يقضى نهائيا على المعارضة فى المغرب .

ويُعَدّ زمن الوليد بن عبدالملك أزهى أيام المروانيين لفتوحاته العظيمة شرقا وغربا ، أما فى

الشرق فاستطاع محمد بن القاسم فتح السند واستطاع قتيبة بن مسلم أن يمتد بانتصاراته إلى الإقليم المسمى الآن باسم أوزبكستان وعاصمته حينذاك سمرقند . وأما فى الغرب فقد استطاع موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد أن يقضيا على الدولة القوطية فى إسبانيا ، وأن يبلغا بفتوحهما هناك أقصى الشمال . وهذه الفتوح كانت تعود على الدولة بأموال عظيمة مما هيأ لرخاء واسع فى ديار الشام ، كما هيأ للوليد نفسه أن يهتم فى دمشق بالعمران وأن يقيم بها الجامع الأموى العظيم ويقال إنه عمل به من البيزنطيين وحدهم ألف ومائتا عامل سوى من عمل به من الفرس وأهل الشام وقد زُيِّنت جدرانه وسقوفه بالرخام المطعم والفُسَيْفساء التى كانت تمثل مدنا وأشجارا من كل نوع سوى ما كان فيه من أعمدة وتزاويق عجيبة .

وخلف الوليد أخوه سليمان واتخذ بلدة الرملة بفلسطين حاضرة له . وكان من سوء تدبيره أن نكَّل بقواد الوليد العظام ، فقُتل قتيبة ولم يعرف مصير موسى بن نصير ولا محمد بن القاسم ، وحَسنته الوحيدة انه استخلف بعده ابن عمه الخليفة العادل عمر بن عبدالعزيز ، وقد ألغى سبَّ على بن أبى طالب على المنابر وعمل على استمالة الشيعة والخوارج والنصارى وخفَّف من ضرائب الجزية المفروضة على الأخيرين فى قبرس وأيلة (العقبة) ونجران ومصر ، وسوَّى بين العرب والموالى فى الضرائب وأعفى منها المشتركين منهم فى حرب خراسان مع فرض أعطيات لهم ، غير أن حكمه كان قصيرا من سنة ٩٩ إلى ١٠١ . ولم يأخذ خلفاؤه بإصلاحاته ، وعجَّل ذلك باضمحلال الدولة . وأولهم بعده يزيد بن عبدالملك الذى لم يأخذ بسيرته وإصلاحاته وانغمس فى الملاهى ، وتلاه بعد نحو أربع سنوات أخوه هشام الذى اتخذ مقره فى الرُّصافة على الفرات ، وفى عهده ثار زيد بن على بن الحسين فى الكوفة سنة ١٢١ وقُتل وصُلب ، واستغلَّ ذلك دعاة العباسيين مما مهد السبيل لقيام خلافتهم بعد نحو عشر سنوات . ومُنى عرب الأندلس بهزيمتهم جنوبى فرنسا سنة ١١٤ للهجرة أمام شارل مارتل .

وتوفِّى هشام سنة ١٢٤ وخلفه عهد تضعضعت فيه الدولة الأموية وآذنت شمسها بالمغيب ، فقد خلفه ابن أخيه الوليد بن يزيد وكان شاعرا ماجنا فلقى مصرعه سريعا ، وجاء بعده يزيد بن الوليد وسرعان ماتوفى بعد خلافته بنحو خمسة أشهر وتلاه أخوه إبراهيم ولم يرضه الناس ولا الأسرة الأموية ، وتحولت مقاليد الخلافة إلى مروان بن محمد بن مروان بن الحكم ، وكأنه لم يعد فى أسرة عبدالملك من يصلح لها . وكان محاربا عالى الهمة ، وأخطأ بنقله عاصمة الخلافة إلى حرَّان ، فانفضَّ عنه بدو الشام ، ونشبت فتن كثيرة أضعفت قواه ، بعضها فى الشام وبعضها فى

العراق حيث الخوارج والشيعة . ولم تكد هذه الفتن تهدأ حتى تحرك العباسيون براياتهم السود من خراسان ، وأخذت المدن الإيرانية تسقط فى أيديهم ودخلوا العراق واستولوا على الكوفة ومضوا إلى شمالى العراق وهزموا مروان عند الزاب الأكبر ، فأخلى الجزيرة واتجه إلى الشام وتخلى عنه أهلها ، فالتجأ إلى مصر ، ولقى مصرعه بها فى بوصير . وكان السفاح قد أعلن الخلافة العباسية فى الكوفة وطورد الأمويون فى كل مكان وأُبيدوا بوحشية ، ونُبِشَتْ قبور خلفائهم – عدا معاوية وعمر بن عبد العزيز – وأُذْريت عظامهم ورفاتهم فى الهواء ، ونجا من هذا البطش والنكال عبد الرحمن الداخل أحد حفدة هشام بن عبد الملك ، إذ فرَّ إلى الأندلس وأسس بها دولة أموية جديدة ظلت نحو ثلاثة قرون .

(جـ) زمن الولاة العباسيين

فقدت الشام – بسقوط الدولة الأموية – السيادة المطلقة فى الإسلام وفقدها العرب معهم تدريجا . إذ أخذ الاعاجم يشغلون المناصب العليا فى الدولة العباسية ، وكان العباسيون يعرفون أن دولتهم إنما قامت على أسنة رماحهم ، فقربوهم منهم وفسحوا لهم فى الوزارة وغير الوزارة . وكان لذلك صداه السيىء فى نفوس أهل الشام ، مما هيَّأ بعد نحو عشرين عاما لثورة القيسية فى قِنِّسْرِين بزعامة أموى هو أبو محمد السفيانى ، وسرعان ماقضى عليها العباسيون وفرَّ السفيانى إلى الحجاز ولقى حتفه هناك ، ولم يصدق أتباعه وفاته فظلوا يترقبون عودته ليجدد للشام مجده الغابر .

ونمضى إلى سنة ١٩٥ فى عهد الخليفة الأمين فيظهر فى دمشق سفيانى جديد هو على بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان ، ويطرد عامل الأمين عن دمشق ، ويبايعه الدمشقيون بالخلافة . وشُغل عنه الأمين بحرب أخيه المأمون مدة . ولم يلبث أن قضى على ثورته أعوان الأمين واختفى بالميزَّة بالقرب من دمشق وأقام بها أياما ومات . وفى سنة ٢٢٧ لعهد المعتصم ثار بفلسطين المُبَرْقع أبو حرب اليمانى وزعم أنه السفيانى المنتظر ودعا أولا إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلى أن قويت شوكته فادَّعى النبوة ، وتبعه قوم من فلاحى القُرَى وقوى أمره وسار إليه أحد قواد المعتصم فى ألف فارس وأسره وحبسه ومات فى حبسه .

وكان أول من تولى الشام للسفاح عمه عبد الله بن على بعد قضائه على مروان بن محمد فى موقعة الزاب حتى إذا فرَّ مروان إلى الشام مضى يتبعه إلى دمشق ففتحها وهدم سورها وقتل من الأمويين ثمانين رجلا فى مذبحة مشهورة ببلدة الرَّمْلة . وولاه السفاح دمشق ، ولما ولى الخلافة بعده

أبوجعفر المنصور ، خرج عليه عبدالله ودعا لنفسه فهزمه أبومسلم الخراسانى ، وحبسه المنصور ومات فى حبسه . وتولى أمر الشام ودمشق بعد عبد الله كثير من الولاة وكان بعضهم من الأعاجم مؤيدى الدولة . واتبع العباسيون سياسة غير حكيمة أن لا يبقوا واليًا لهم فى بلد إلا مدة قصيرة . وكان هذا سببا فى أن لايُعْنَى الولاة بالنهوض ببلدانهم من جهة ، كما كان سببا فى أن يحاولوا الإثراء سريعا قبل أن يُعْزَلوا من مناصبهم ، مما كان يدفعهم فى كثير من الأحيان إلى الزيادة فى الضرائب ، كما كان يدفع الناس إلى الثورة عليهم ، وسرعان ما كان يقضى على ثوراتهم كما حدث فى حلب سنة ١٦٢ وفى حمص سنة ١٩٤ .

ويبدو أن القبائل القيسية واليمنية لم تتعظ بما أصابها من فقدان موطنها لاستقلاله الذاتى ، فقد اندلعت بينهما نار العصبية القديمة وأخذوا يمدونها بحطب جَزْل طوال العقد الثامن من القرن الثانى ، واغتنمت السوقةبدمشق الفرصة فنهبت ما استطاعت أيديها نهبه ، وتطاحن الفريقان وسُفكت دماء المئات منهما . وأخيرًا أرسل اليهما هرون الرشيد وزيره جعفرًا البرمكى ، فأطفأ نار العصبية المحتدمة بين الطرفين بتجريدهما من السلاح وعاد إلى دمشق الهدوء والسلام . وفى سنة ٢٢٧ يولى المعتصم موسى بن إبراهيم الرافقى دمشق فتثور عليه القيسية ويقتل منها خمسة عشر نفسا ، فتشتد ثورتها وتحاصر دمشق ، ويتوفى المعتصم فيرسل الواثق خلفا له أحد قواده فيهزم القيسية ويقتل منها ألفا وخمسمائة ، وتهدأ الثورة ، ويعود الأمن إلى دمشق .

وكان الخلفاء العباسيون يرحلون إلى الشام أحيانا ، لزيارة بيت المقدس أو للحج منه ، وأكثر رحلاتهم إنما كانت لحرب البيزنطيين ، والسقوط عليهم من ثغوره . ومما يذكر لهم أنهم أقاموا فى حدوده الشمالية كثيرا من الثغور للاندفاع منها إلى آسيا الصغرى . وكانت جيوشهم ماتنى ذاهبة إلى شمالى الشام آيبة منه ، مما عاد عليه بكثير من الرخاء وانتعاش التجارة . واشتهر المهدى والرشيد بنضالها لبيزنطة وما كان من فتح هرقلة وضرب البيزنطيين ضربات قاصمة . وأخذ المأمون منذ سنة ٢١٥ يقود حملات عنيفة لمدة ثلاث سنوات متوالية استولى فى أثنائها على لؤلؤة أقوى وأمنع الحصون البيزنطية بالقرب من طَرسوس ، مما اضطر تيوفيل إمبراطور بيزنطة إلى التماس الصلح . وفى سنة ٢٢٣ دق المعتصم وقواده أعناق البيزنطيين دَقًّا وأوطئوهم ذُلاًّوصَغارا إذ هدموا أنقرة وحرقوا عَمُّورية أمنع بلادهم فى آسيا الصغرى . وظل قواده من أمثال محمد بن يوسف الثغرى وابنه يوسف يَكيلون لهم ضربات ساحقة . ويظل غزو البيزنطيين صيفا فى أيام الخليفة المتوكل ، ويغيرون على بعض الثغور فى شمالى الشام . وينكل بهم على بن يحيى الأرمنى والفارس المغوار عمر

ابن عبدالله الأقطع ، ويتم فتح صقلّية ، ويدمر أسطول المتوكل بقيادة أحمد بن دينار أسطول البيزنطيين . وزار المتوكل الشام فى آخر سنة ٢٤٣ ودخل دمشق وأعجبته ، وبنى له قصرًا بالغوطة وعزم على المقام بها ونقل دواوين الخلافة إليها . ويفطن قواده من الترك إلى مأربه ، وأنه يريد التخلص منهم ، فطالبوا برواتبهم حتى يضطروه إلى العودة إلى سامَّراء عاصمته فى العراق . ونزل على إرادتهم ، وبارح دمشق سريعا . وربما كان من أهم ماخلفه عصر الولاة العباسيين بالشام كثرة العناصر الفارسية التى دخلته بين ولاة وقضاة وعلماء وفقهاء مختلفين .

(د) الطولونيون – القرامطة

١- الطولونيون[١]

كان أحمد بن طولون تركى الأصل خدم العباسيين وولى مصر فأنشأ بها الدولة الطولونية محققا لها نوعا من الاستقلال الذاتى ، وكان قد ولى إمرة الثغور وجاهد فى سبيل الله . ويقول مؤرخوه إنه نشأ يُعْنَى بالفقه مع كثرة الدرس وطلب العلم ، وكان يقول : ينبغى للرئيس أن يجعل اقتصاده على نفسه وسماحته على من يقصده ويشتمل عليه ، فإنه يملكهم ملكا لايزول به عن قلوبهم ، وقد غم الرخاء مصر منذ وليها فى سنة ٢٥٤ ويقال إنه كان يتصدق فى كل يوم بمائة دينار غير ما كان يرسله إلى الشام والعراق والحجاز . ومنذ توليه مصر وضع نصب عينيه الاستيلاء على الشام ، ولم يكن ذلك غائبا عن فكر الموفق القائم على تدبير دولة أخيه المعتمد ، غير أنه كان مشغولا بثورة الزنج والقضاء عليها ، وانتهز ابن طولون الفرصة بعد موت والى دمشق سنة ٢٦٤ وأناب عنه بها مولاه لؤلؤًا ولم يلبث فى سنة ٢٦٨ أن أظهر الخلاف عليه وضرب نقودا باسمه وكاتب الموفق ليرسل إليه جيشًا يفتح به مصر . وخشى ابن طولون أن يهم الموفق بتلبيته ، فأرسل إلى الخليفة المعتمد وكان كالمحجور عليه يرغبه فى الرحيل إليه بمصر ، وتوجه إلى سوريا كى يكون فى استقباله . وعزم المعتمد على اللحاق به وتنبه الموفق ، فحال بينه وبين الرحيل عن العراق . ومضى ابن طولون يغاضب الموفق فقطع اسمه من الخطبة يوم الجمعة بمصر والشام إذ كان يُذْكر فيها وليا

---

(١) راجع فى هذه الدولة كتب التاريخ السالفة فى أول الفصل وسيرة أحمد بن طولون للبلوى ودائرة المعارف الإسلامية وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٢٢٠.

للعهد ، ولم يردّ على ذلك الموفق إذ كان يميل معه إلى السلام ، ولذلك لم يرسل إلى لؤلؤ جيشًا لغزو مصر . وعادت الشام إلى ابن طولون سريعا .

وكان عهد ابن طولون فى الشام عهد رخاء وأمن ، ويقال إنه أول دخول له فى دمشق وقع بها حريق ، فأمر بأن يعطى لكل من احترق له شىء من المال مايعوِّضه ، ثم أمر بمال عظيم ففُرِّق فى فقراء دمشق والغُوطة . وتوفى سنة ٢٧٠ فخلفه ابنه خُمارويه ، وثار عليه واليه على دمشق وولاة آخرون هناك . وأيدهم الموفق بجيش ، فنى خمارويه بالهزيمة ، وتتابعت هزيمته فى سنتى ٢٧١ و٢٧٢ . وأخذ نجمه فى الصعود لسنة ٢٧٣ إذ كتب إلى الموفق فى الصلح فأجابه ، وكتب له بولايته على مصر والشام والثغور لمدة ثلاثين سنة . وسُرَّ خمارويه سرورا عظيما ، وأمر بإعادة الدعاء للموفق فى خطبة الجمعة ، وكان يتردد على الشام بجيشه الضخم كثيرا ، مما كان يعود على أهلها برواج واسع فى التجارة . وبدمشق قتله خادم له فى قصره سنة ٢٨٢ ويقال إن هذا الخادم كان أولع بجارية له فتهددها خمارويه بالقتل فاتفقت مع الخادم على قتله . وسرعان ما أخذت شمس الدولة الطولونية فى الغروب ، وولى بعده ابنه « أبو العساكر جيش » وعكف على الشرب واللهو فنفر القواد – ونفرت الناس – منه . وخلعه أخوه هرون بعد ولايته بتسعة أشه ، وكان لايزال صبيا ضعيفا ، فأخذت الدولة فى التضعضع ، وعاث القرامطة فسادًا فى الشام ، ولم يستطع قواده وجنوده أن يردوهم عن دمشق وغيرها فاستغاث أهل الشام بجيوش الخليفة المكتفى وأغاثتهم . ووضح أنه لم يعد يوجد أى مسوغ للإبقاء على الأمير الطولونى المستضعف ، وخلفه عمه شيبان وكان لايقل عنه ضعفا ، ومنه تسلم مصر محمد بن سليمان سنة ٢٩٢ .

٢ – القرامطة [١]

كان أول ظهور القرامطة فى العراق سنة ٢٧٧ ، وهى حركة سياسية دينية خطيرة تحدثنا عنها بالتفصيل فى كتابنا العصر العباسى الثانى ، وأوضحنا كيف أنها بدأت بإيحاء من عبدالله بن ميمون

---

(١) انظر فى القرامطة كتب التاريخ وخاصة الطبرى ، وكتب الملل والنحل وخاصة الفرق بين الفرق للبغدادى ، ودراسات فى العصور العباسية المتأخرة لعبدالعزيز الدورى ص ١٢٦ وما بعدها وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٢٢٩ وكتابنا العصر العباسى الثانى ص ٣٣ ومابعدها .

القدَّاح منظم الدعوة الإسماعيلية الشيعية من مركزه فى « سَلَمْية » بالقرب من اللاذقية . وكيف أنه أرسل دعاته إلى العراق وخاصة الكوفة وسوادها وعلى رأسهم الحسين الأهوازى ، وقد التقى فى لسواد بنبطى يلقب بَقْرمط ووجد فيه أمنيته من التحمس الشديد للدعوة . ولما دنا أجله عهد إليه بها فنظمها . وتبعه كثيرون مكونين فرقة القرامطة نسبة إليه ، وسرعان ما تحولت الفرقة إلى فرقة مارقة تُحلُّ أتباعها من الفرائض الدينية وتفرض عليهم نظاما اشتراكيا فى الأموال . وانضم إلى قَرْمط قليل من الطبقة الكادحة لا فى السواد والريف فقط بل أيضا فى المدن ، ومن أهم أتباعه الحسين بن بهرام الجنابى الفارسى الذى نشر الدعوة فى البحرين والأحساء . ويخلفه فى سنة ٢٨٩ زكرويه القرمطى وكان أكثر نشاطا من قرمط ، فرأى أن يعنى بنشر الدعوة بين البدو فى جنوبى العراق ولم يتبعه إلا القليل ، حينئذ أرسل أولاده يحيى والحسين ومحمدا إلى عشائر قبيلة كلب فى بادية الشام وزعموا لها أنهم من سلالة محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، وتبعهم كثيرون وخاصة بنى العُلَيْص . وكانوا قد جعلوا زعامتهم لأخيهم يحيى فبايعه البدو وكانت له عضد ناقصة فكشفها لهم وقال إن هذه آيته . وآية له ثانية هى ناقته ، وزعم أنهم إذا تبعوها فى لقاء عدو كُتب لهم النصر المبين . وساق جموعه فى الشام يعيثون ويفسدون ، وحاصر بهم دمشق فقُتل على أبوابها ، فبايع أتباعه أخاه الحسين ونادوا به خليفة له ، وأظهر لهم شامة فى وجهه الملثم وقال إنها آيته ، ولذلك لُقِّب صاحب الشامة . وخافه أهل دمشق فصالحوه على خراج يؤدونه إليه ، وتغلب على حمص وخُطب على منابرها بأنه المهدى المنتظر ، وهاجمت جموعه بعلبك وحماة والمعرة تقتل وتنهب . وكانت الشام حينئذ تتبع الدولة الطولونية كما مر بنا ، وكانت تعانى ضعفا شديدا ، فلم تستطع أن تنقذ الشام من القرامطة وما أحدثوه بها من الفوضى والدمار ، مما جعل أهل الشام يستغيثون منهم بالخليفة المكتفى ، ولبى استغاثتهم فأرسل إليهم محمد بن سليمان على رأس جيش كثيف ، فواقع القرامطة بالقرب من حماة فى المحرم سنة ٢٩١ وأنزل بهم هزيمة ساحقة ، وفرَّ كثيرون منهم إلى البوادى . أما الحسين بن زكرويه فاتجه إلى الفرات ، وأُسر هناك وصُلب ببغداد مع عشرات من القرامطة . وكان أخوه محمد لايزال حيا بين بدو الشام ، فأخذ فى جمعهم حوله ، حتى إذا كانت سنة ٢٩٣ أغاربهم على دمشق وحارب أهلها ودخلها وأعمل فيها القتل والنهب ، ثم صار إلى طَبريَّة فانتصر على أهلها ودخلها وفتك بكثير من رجالها ونسائها وعاد إلى البادية . وفى نفس السنة أرسل زكرويه داعية له يسمى أبا غانم إلى بادية الشام ، وتبعه كثيرون ونهب بهم بُصْرى وأذرعات ، وتعقَّبته جنود الخلافة ولم يلبث أحد أتباعه أن قتله . وبذلك تنتهى حركة

زكرويه وأولاده ودعاته فى الشام ، وكانت قد أصبحت منذ انتصار محمد بن سليمان على صاحب الشامة تابعة لبغداد ، ترسل إليها ولاة مختلفين .

(هـ) الإخشيديون – الحمدانيون (سيف الدولة)

١ – الإخشيديون[١]

الإخشيد هو محمد بن طُغْج ولى مصر فأسس بها الدولة الإخشيدية سنة ٣٢٣ وما تُقبل سنة ٣٢٨ للهجرة حتى تحدَّث محمد بن رائق صاحب دمشق نفسه بالاستيلاء على مصر ، ويلتقى به الإخشيد فى الفَرَمَا ، ويتم بينهما الصلح . وسرعان ماينقضه ابن رائق وينهيأ الإخشيد لقتاله ، ويلتقيان ثانية فى العريش وتحدث بينهما وقعة عظيمة . ويصطلحان على أن تكون للإخشيد الرملة وجنوبيها فى فلسطين ، أما شماليها من بلاد الشام جميعا فتكون لابن رائق . وحدث فى سنة ٣٣٠ أن قتل الحمدانيون محمد بن رائق وانتهز الفرصة الإخشيد وجهز الجيوش إلى الشام واستولى عليها ، ودخل دمشق وأصلح أمورها وأقام بها مدة ، ثم عاد منها إلى الفسطاط فى السنة التالية . ووقعت بينه وبين سيف الدولة الحمدانى أمير حلب وحشة امتدت من سنة ثلاث وثلاثين إلى أول سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة ، واصطلحا على أن تكون لسيف الدولة حلب وحمص وأنطاكية وتظل بقية بلاد الشام للإخشيد . وسرعان ما توفى بدمشق سنة ٣٣٤ مستخلفا بعده على مصر والشام ابنه أنوجور وعاهدا إلى مولاه كافور الإخشيدى بتدبير أمور مملكته . وفى أوائل إمارة أنوجور لسنة ٣٣٥ استولى سيف الدولة الحمدانى على دمشق ، فحشد له أنوجور عسكرًا ضخما ولقيه فى مدينة الرملة ، ونشبت بينهما وقعة طاحنة انكسر فيها جند سيف الدولة وسار المصريون وراءهم إلى حلب . واستقر الأمر على الصلح وأن يظل لسيف الدولة مابيده من حلب وحمص وأنطاكية ، أما دمشق وبقية الشام فتظل لأنوجور . وينزل المتنبى مصر فى أيامه سنة ٣٤٦ ويتوفى أنوجور سنة ٣٤٩ قبل مبارحة المتنبى لها ويخلفه أخوه على ويظل كافور قائما بتدبير الدولة وتصريف شئونها . وفى سنة ٣٥٢ قدم قرامطة البحرين إلى الشام وعاثوا فيها فسادا ولم يستطع جند مصر دَفعهم عنها لاضطراب أعمال الديار المصرية بسبب عظم الغلاء وكثرة الفتن ، وفسد فى أثناء ذلك مابين على

---

(١) انظر فى الإخشيديين كتب التاريخ المذكورة فى أول الفصل وخاصة النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لابن تغرى بردى، وانظر ترجمة الإخشيد وكافور فى ابن خلكان وخطط المقريزى ٦١٧/١ ومصر فى عصر الإخشيديين للدكتورة سيدة كاشف.

ابن الإخشيد وكافور ولم يلبث على أن توفى سنة ٣٥٥ وتولى أمر الدولة فى مصر والشام بعده كافور الحبشى باتفاق من أعيان مصر وجندها . وكان الإخشيد اشتراه من بعض رؤساء مصر وأعتقه ورقّاه حتى جعله من كبار قواده لما رأى فيه من الحزم وحسن التدبير ، وكان شجاعا مقداما . وظلت ولايته على مصر والشام إلى وفاته فى جمادى الأولى سنة ٣٥٧ وتولّى بعده على بن أحمد بن الإخشيد، وكان صبيا، واضطربت أحوال الشام فى عهده اضطرابًا شديدًا بسبب غارات القرامطة المتكررة وما كان يصحبها من الفوضى والنهب والسلب. وسرعان ما سقطت مصر فى يد الفاطميين لسنة ٣٥٨ وبذلك انقرضت دولة الإخشيديين.

٢ – الحمدانيون(١) (سيف الدولة)

منذ أواخر القرن الثالث الهجرى أخذ يتألق اسم أسرة تغلبية عربية هى الأسرة الحمدانية ، وقد استطاع مؤسسها حمدان فى سنة ٢٧٧ أن يستولى على قلعة ماردين فى الموصل ، وأخذت أسماء أبنائه وأحفاده تلمع فى أحداث الخلافة المضطربة ، ولمع من بنيه مبكرًا اسم أبى الهيجاء لاستيلائه على مدينة الموصل سنة ٢٩٣ وظلت فى يده ويد ابنه ناصر الدولة وحفيده أبى تغلب المتوفى سنة ٣٦٩ . وقد استطاع ابنه على الملقب بسيف الدولة أن يستولى من الدولة الإخشيدية على حلب وحمص واللاذقية وأنطاكية وأسس فيها جميعا إمارة مستقلة منذ سنة ٣٣٣ للهجرة متخذًا حلب عاصمة له . وحاول الاستيلاء على دمشق من الإخشيد – كما مربنا – غير أن المصريين ردوه على أعقابه فاكتفى بإمارته . وندب نفسه لمهمة عظمى طالما هيأ نفسه لها منذ شبابه ، وهى النهوض بعبء الحرب ضد الروم البيزنطيين . وكان أول لقاء له معهم فى سنة ٣٣٦ إذ أغاروا على أطراف الشام ونهبوا وسبوا فلحق بهم وأذاقهم نكالا شديدًا ، وردَّ منهم كل ماسلبوه من أهل الشام . ويُكتَبُ له منذ السنة التالية مجد حربى عظيم ضد الروم ، ويسجله له لوحات شعرية ناطقة المتنبى الذى نزل بلاطه حينئذ ، ولزمه حتى سنة ٣٤٦ يسجل ويصور ملاحمه الحربية الساحقة للروم سحقًا ذريعا .

---

(١) انظر فى الأسرة الحمدانية وسيف الدولة كتب التاريخ السالفة والجزء الأول من زبدة الحلب فى تاريخ حلب لابن العديم (طبع المعهد الفرنسى بدمشق – تحقيق الدكتور محمد سامى الدهان) وراجع اليتيمة للثعالبى ١٥/١ ومابعدها ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع فى الحمدانيين وسيف الدولة

ومضى البطل الحمدانى يدير مع الروم معارك باسلة كان ينصبُّ عليهم فيها سنويا كإعصار محرق مدمر ، وشاعره المتنبى من ورائه يتغنى بانتصاراته وبخوارقه البطولية حين تلم به كارثة ، إذ يتخلص منها فى شجاعة نادرة . ومن أعظم بطولاته أنه كان يبنى الحصون فى أثناء نزاله للروم على نحو ماصنع بحصن مَرْعش فى سنة ٣٤١ وهو يكيل لهم ضربات قاصمة . وقد أنزل بهم صواعق الموت التى لاتبقى ولاتذر فى سنة ٣٤٢ وأسر قسطنطين بن الدمستق وساقه بين يديه فى دخوله حلب مظفرًا منصورًا . وفى سنة ٣٤٣ جمع الروم له حشودا هائلة من الترك والروس والبلغار والخزر بقيادة الدمستق ، وسرعان ما أخذ يدق أعناقهم دقا ، وهرب الدمستق على وجهه لايلوى ، وأُسر صهره بينما كان البطارقة يقتلون ويؤسرون ، وأخذ سيف الدولة عسكرهم بكل مافيه . وسيف الدولة فى أثناء هذه المعركة ووطيسها المستعر يبنى حصن الحدث شمالى مرعش والمسلمون يكبِّرون ويهلِّلون . وفى سنة ٣٤٥ أنزل بهم ضربات مدمرة . وكان ماينى يمد يد المساعدة لأخيه ناصر الدولة فى نزاله للروم شمالى الموصل وكثيرا مانازلهم هناك وفى شمالى الجزيرة . وما تقبل سنة ٣٤٦ حتى يكفهرّ الجو بين المتنبى وبين البطل العربى . ويرحل عنه وكأنما رحل معه مجده الحربى فقد واقع الروم فى السنوات ٣٤٧ ، ٣٤٩ ، ٣٥١ ولم يُنْزل بهم ماتعوَّد من التنكيل الشديد .

ولم يلبث البطل العظيم أن أصابه فى سنة ٣٥٢ فالج فى يده ورجله ورغم هذا الفالج النصفى نهض البطل من فراشه وصدَّ بقوة هجوما للروم على حصن من حصون حلب . وفى سنة ٣٥٦ لبَّى البطل نداء ربه ، وكان قد أوصى بأن يوضع خده فى لحده على لَبِنَةٍ بقدر الكف جمعها مما علق بثيابه ودروعه وسلاحه من غبار غزواته للروم . ونُفِّذت وصيته . وكان يرعى العلوم والآداب أعظم رعاية . ولمع فى بلاطه أكبر تلامذة أرسطو حتى زمنه : الفارابى المعلم الثانى . ولمع كثير من الشعراء والكتاب يتقدمهم المتنبى ، وعقد لهم الثعالبى فى كتابه « يتيمة الدهر » فصولا طويلة فى الجزء الأول منه ، وفيه وفى أسرته يقول : « كان بنو حمدان ملوكا وأمراء أَوْجُههم للصباحة ، وألسنتهم للفصاحة ، وأيديهم للسماحة ، وعقولهم للرَّجاحة ، وسيف الدولة مشهور بسيادتهم ، وواسط قلادتهم ، وحضرته مقصد الوفود ، ومطلع الجود ، وقِبْلة الآمال ، ومحط الرِّحال ، وموسم الأدباء ، وحلْبة الشعراء » . وخلفه ابنه سعد الدولة ، وكان ابن عمه أبوفراس الشاعر المشهور عامل أبيه على حمص قد ظلم وأكثر من الظلم وكثرت الشكوى منه ، فقاتله وخرَّ أبوفراس فى ميدان الحرب صريعا . وفى نفس السنة علم باستعداد الروم لحربه ، فأسل إليهم قَرْغُويه الحاجب وأُسر وأفلت منهم وانهزم أصحابه وخرَّب نقفور كثيرًا من بلدان الشام وأعمل النهب

والسلب . وعصى قرغويه سعد الدولة واستولى على حلب فى أول سنة ٣٥٨ ولم يلبث نقفور أن استولى على انطاكية ، وظلت فى أيدى الروم إلى أن فتحها السلاجقة سنة ٤٧٧ وأمضى معه قرغويه صلحا ذليلا ، واصطلح مع سعد الدولة الذى ظل أميرًا لحلب حتى توفى سنة ٣٨١ فخلفه ابنه سعيد الدولة ، وقد عقد مثل أبيه حلفا بينه وبين الروم ضد الفاطميين الخطر المشترك للطرفين ، وتوفّى سنة ٣٩٢ . وخلفه ولدان له ، ولعب بهما لؤلؤ مولى جدهما واستولى على الأمور إلى أن توفى وقام مكانه ابنه منصور . وحاول ابن لسعد الدولة يسمى أبا الهيجاء أن يسترد إمارة آبائه ولم يلبث ان فرّ الى بلاد الروم فى مطالع القرن الخامس الهجرى ، وبذلك انتهت إمارة الحمدانيين بحلب وشمالى الشام ، ولم تكن إمارة لهم حقا إلا فى عهد سيف الدولة المجيد

٢

الفاطميون – بنو مرداس – السلاجقة – الصليبيون – آل زنكى (نور الدين)

(ا) الفاطميون[1]

دولة شيعية إسماعيلية تأسست فى تونس وتحوّلت إلى مصر بعد فتح قائدها جوهر لها سنة ٣٥٨ ، ولم يلبث أن أرسل إلى الشام جعفر بن فلاح على رأس جيش للاستيلاء عليها . ولم يلق مقاومة تذكر ، ودخل دمشق وخطب بها للمعز الخليفة الفاطمى فى المحرم سنة ٣٥٩ ، وفى السنة التالية أعلن المؤذنون فى الشام – بأمره – « حىّ على خير العمل » شارة الأذان الشيعى . وأخذ القرامطة يغيرون على دمشق ومدن الشام وكان يردهم جعفر بن فلاح ، ولم يلبث كبيرهم فى البحرين الحسين بن أحمد – كما مر بنا فى الحديث عن الجزيرة العربية بعصر الدول والإمارات – أن قطع علاقته بالفاطميين فى مصر وأعلن خضوعه للخلافة العباسية ، وسأل الخليفة المطيع بالله العباسى على لسان عز الدولة البويهى أن يوليه مصر والشام ويعطيه مالا وسلاحا لحرب المعز لدين الله ، وأمده عز الدولة بالسلاح والمال فى سنة ٣٦٠ وقيل بل فى سنة ٣٦٢ فسار إلى الشام وملكها ولعن المعز الفاطمى وأباه على منبر دمشق ، وأقام الدعوة للعباسيين ، وسار إلى القاهرة بعساكره وحصلت – بالقرب منها – بينه وبين المعز مناوشات ، وتقهقر المعز ، وأغرى قواده بالمال فخرجوا

(١) انظر فى الفاطميين بالشام كتب التاريخ العامة : ابن الأثير وابن خلدون وابن تغرى بردى وابن خلكان فى تراجم الخلفاء وجوهر الصقلى والمغرب لابن سعيد (قسم القاهرة) وتاريخ مصر لابن ميسر والإشارة إلى من نال الوزارة لابن الصيرفى وذيل تاريخ دمشق لابن القلانسى (طبع ليدن) فى السنوات ٣٦٣-٥٥٥ واتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا للمقريزى وكتابه الخطط ٢/٢١ والفاطميون فى مصر للدكتور حسن إبراهيم حسن.

عليه وانضموا إلى المعز ، فعاد إلى الرملة بالشام ومنها إلى البحرين . وكان ذلك أول اضطراب شديد حدث فى الشام لعهد الفاطميين وانتشرت فى أثنائه وبعده الفوضى فى دمشق واشتعلت النار فى كثير من أحيائها .

وظل الفاطميون مسيطرين على الشام نحو قرن ، قلما وجدت فيه أمنا وسلاما بسبب كثرة الولاة الذين كانوا يولونهم عليها ، فكان هم الوالى أن يُثْرى بسرعة على حساب أهلها ومايفرض عليهم من الضرائب ، وقد وليها لهم نحو خمسين واليًا ، وكثيرًا ما كان يتولاها اثنان أو أكثر فى العام الواحد . وبسبب ظلم الولاة وكثرة الضرائب كانت تنشأ أحيانا ثورات محدودة لبعض العيَّارين بها كثورة قسَّام الحارثى سنة ٣٧٧ لعهد العزيز الفاطمى . وخلف العزيز ابنه الحاكم بهوسه وشذوذه النفسى ودعواه الألوهية مما صورناه فى قسم مصر ، وكان من أهم من أغراه بدعوى الألوهية رجل يعرف بالدرزى أمره الحاكم أن يخرج إلى الشام وينشر تلك الدعوة فى الجبال ، فنزل هناك وتبعه كثيرون من جبل حوران فى سوريا المعروف باسم جبل الدروز ، وانتشرت الدعوة بين سكان الإقليم الجبلى بلبنان ، ولاتزال فى المنطقتين إلى اليوم ، وسقطت منها أسراب إلى جبال فلسطين وإلى الجبال فى أعالى الشام على نهر العاصى وقرب أنطاكية . ومن المؤكد أن العقيدة الفاطمية الإسماعيلية هى التى دفعت الحاكم ودعاته إلى ربوبيته إذ كانت تردِّد – كما مر بنا فى قسم مصر – أن الخلفاء تجسدٌ للذات العلية . وكان طبيعيا فى عهد هذا الخليفة الشاذ المخبول أن تضطرب شئون الحكم فى الشام . وكان أبوه وجده يستعينون ببدو الجزيرة العربية الشماليين من طيئ ورؤسائهم بنى الجراح ، ونرى حينئذ حسان بن المفرِّج بن دغفل لايكتفى بإقطاع الفاطميين لأبيه مدينة الرملة ، بل يستولى على أكثر الشام ، ويحاول أن يخلع الحاكم ، ويولى مكانه أبا الفتوح أمير مكة الحسنى ، ويَقْدُم عليه أبو الفتوح ، غير أن الحاكم يغرى ابن المفرج بالأموال فينفض يده من أبى الفتوح ويعود إلى إمارته .

(ب) بنو [1] مرداس

كانت حلب قد دخلت فى حكم الفاطميين منذ سنة ٤٠٦ ولانمضى طويلا فى سنة ٤١٥ حتى يستقل بها صالح بن مرداس الكلابى ويضع فى سنة ٤٢٠ يده فى يد حسان بن المفرِّج الطائى ويجمعان الجموع ويستوليان على الأعمال فى الشام وينتهيان إلى غزة ، ويلتقى بهما جيش فاطمى ،

(١) انظر فى بنى مرداس كتب التاريخ العام وزبدة الحلب من تاريخ حلب : الجزءين : الأول والثانى .

فينهزم حسان ويقتل فى المعركة صالح وابنه الأصغر ، ويخلفه ابنه شبل الدولة نصر. وطمع صاحب أنطاكية فى حلب ، وجمع لها الجموع وأحاط بها وقاتل أهلها ، ولم يلبث نصر أن خرج إليه وفتك بمعظم جنوده وفر على وجهه وغنم منه نصر عسكره وأموالا عظيمة . وتوفى نصر سنة ٤٢٩ وخلفه أخوه ثمال وخضع للفاطميين وتوفى سنة ٤٥٤ . ونشب خلاف بعده على حكم البلدة بين أخيه عطية وبين محمود بن نصر واصطلحا . وتخلص حلب لمحمود منذ سنة ٤٥٧ ، ويواقع الروم ويهزمهم ويراسل ألْب أرْسلان السجلوقى ويستقر بينهما الأمر على إعادة الدعوة العباسية والخضوع للسلاجقة . وفى أيامه قاد ألب أرسلان حملة مظفرة ضد دولة الروم الشرقية وأسر إمبراطورها « روما نوس ديوجين » سنة ٤٦٢ وفدى الإمبراطور نفسه بمليون دينار ، على نحو مامَّر بنا فى حديثنا عن السياسة بالعراق فى الجزء السابق من عصر الدول والإمارات . وظل محمود أميرًا لحلب حتى سنة ٤٦٧ وأعاد بها ذكرى الحركة الأدبية التى أحدثها بها سيف الدولة ، فالتف حوله كثير من الأدباء والشعراء ، وخلفه ابنه نصر وكان محبوبا من الحلبيين غير أن الموت اختطفه سريعًا بعد نحو عام من ولايته ، وجاء فى إثره أخوه سابق حتى نهاية سنة ٤٧٢ إذ سلم البلدة لمسلم بن قريش العقيلى صاحب الجزيرة فبقيت معه نحو خمسة أعوام وتسلمها منه السلاجقة .

(جـ) السلاجقة[1]

مر بنا فى حديثنا عن العراق بالجزء الخامس من تاريخ الأدب العربى حديث مفصل عن السلاجقة واستيلائهم على دِفَّة الحكم فى خراسان وإيران والعراق ، وقد أنزل ألْب أرْسلان بإمبراطور بيزنطة هزيمة ساحقة كانت إرهاصا قويا لزوال الحكم البيزنطى من آسيا الصغرى كما حدث فعلا . وكان طبيعيًّا أن يفكر ألب أرسلان وابنه ملكشاه فى الاستيلاء على الشام ، وسرعان ماظهر فى سنة ٤٦٣ أُتسز بن أوق الخوارزمى فى فلسطين واستولى على الرملة وبيت المقدس ، وفى سنة ٤٦٨ استولى على دمشق ، وبذلك أصبح أكثر الشام تابعا للسلاجقة . حتى إذا كانت سنة ٤٧٢ تسلم تُتُش بن ألب أرسلان من أتسز دمشق وأصبح نائبا فيها لأخيه ملكشاه ، وافتتح فى سنة ٤٧٤ أَنْطَرْطوس على ساحل البحر المتوسط ، وهى أول أعمال حمص ، ولم يلبث أن استولى على

---

(١) راجع فى سلاجقة الشام كتب التاريخ العام وذيل تاريخ دمشق لابن القلانسى وانظر فى أتسز تاريخ دمشق لابن عساكر ٣٣١/٢ وفى تتش ابن عساكر ٣٤٠/٣ وفيه وفيمن وليها بعده حتى استيلاء نور الدين عليها ابن خلكان ٢٩٥/١

حمص نفسها . وظل ساحل الشام جنوبى صور تابعا لمصر . واستقل جلال الملك بن عمار قاضى طرابلس بها سنة ٤٧٠ وكان قد أقرّه عليها ملكشاه السلجوقى وظلت معه حتى أخذها الصليبيون سنة ٥٠٢ . وفى هذه الأثناء استولى على بن منقذ من الروم على حصن شَيْزَر شمالى الشام سنة ٤٧٤ وظلت فى يده ويد أبنائه إلى أن هدمتها زلزلة شديدة سنة ٥٥٢ . وكان سليمان بن قُتْلُمش استولى على أنطاكية سنة ٤٧٧ فحاربه تُتُش وخرّ صريعا فى الحرب سنة ٤٧٩ . وبذلك صارت إلى تُتُش واستولى على حلب سنة ٤٨٧ ، وقُتل بالرى فى حرب مع ابن أخيه بَرْكياروق سنة ٤٨٨ . وخلفه على حلب ابنه رضوان ، ومن نوابه أخذ الصليبيون أنطاكية سنة ٤٩٢ وخلفه على دمشق ابنه دُقاق .

وتوفى دقاق سنة ٤٩٧ فخلفه عليها أتابكه « طُغْتِكين » وأسس بها دولة البوريين وله فى جهاد الصليبيين يد بيضاء وكان شجاعا عادلا فى الرعية توفى سنة ٥٢٢ فخلفه ابنه بورى حتى وفاته سنة ٥٢٦ وكان قد قتل جماعة كثيرة من الإسماعيلية فسلّطوا عليه رجلين ضرباه بالسكاكين وظلت جراحه تنتقض وتندمل إلى وفاته . وخلفه ابنه إسماعيل ، وكان ظالما سيئ السيرة محبا لسفك الدماء توفى سنة ٥٢٩ وكان أسوأ منه أخوه محمود الذى ولى بعده فقتله أمراؤه سنة ٥٣٣ وخلفه عاما واحدًا أخوه محمد ، وتوفى فخلفه ابنه مجير الدين آبق . وكان باغيا ظالما ، وكان يضع يده فى يد الصليبيين ضد نور الدين صاحب حلب غير مراعٍ إلاًّ ولا عهدا . واستجار منه أهل دمشق مرارًا بنور الدين حتى إذا كانت سنة ٥٤٩ اضطر إلى تسليمها إليه وخرج منها ذليلا صاغرا . وكان تُتُش ولّى تركمانيا يسمى أرتق بيت المقدس فاستقلّ به مؤسسا دولة الملوك الأرتقية ، وتوفى سنة ٤٨٤ فخلفه عليها ولداه سُكْمان وإيلغازى ، ومنهما أخذها الأفضل بن بدر الجمالى سنة ٤٩١ وتوجها إلى بلاد الجزيرة وملكا – كما يقول ابن خلكان – ديار بكر .

(د) الصليبيون[1]

كانت الدولة الفاطمية قد أخذت فى التدهور منذ عهد الحاكم بسبب ما غرق الخلفاء الفاطميون فيه من ترف وما أصاب الحياة الاقتصادية من سوء حتى لقد عظمت المجاعة فى عهد المستنصر (٤٢٧ – ٤٨٧ هـ)، وحاول بدر الجمالى أن يتلافى الأمور، فعمل على

(١) انظر فى الصليبيين كتب التاريخ العام لابن الأثير وابن تغرى بردى وابن خلدون وماكتب عنهم حديثا فى العربية واللغات الأجنبية وراجع تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٣٤٥

إصلاحها ، ولكن الشام كانت قد أفلتت منه إلا ساحلها الجنوبى . وكان المظنون أن يرث السلاجقة تلك الدولة المنهارة ، غير أنهم اتبعوا فى حكمهم نظاما سرعان ماضعضع دولتهم إذ اتخذوا فيها نظام الأتابكة ، وهو أن يكون مع كل حاكم لبلد أتابك أو بعبارة أخرى قائد يدير أمرها ، ولم يلبث نفوذ هؤلاء الأتابكة أن ازداد وأصبحوا هم الحكام الحقيقيين . وبذلك تفككت سريعا أوصال دولتهم الضخمة وتحولت إلى دويلات على نحو ما مر بنا آنفا من دولة البوريين فى دمشق والدولة الأرتقية فى بيت المقدس ، حتى إذا قدم الصليبيون فى العقد الأخير من القرن الخامس الهجرى لم يجدوا أمامهم قوة تدفعهم دفعا إلى البحر المتوسط وماوراءه فلا السلجوقيون محتفظون بقوتهم القديمة التى أزالوا بها بيزنطة ودفعوها من آسيا إلى أوربا ولا الفاطميون محتفظون بشىء من القوة يستطيعون أن يدفعوا به عن بلدانهم الساحلية فى الشام هذا الوباء الصليبى الجارف .

ويظهر الجيش الصليبى أمام أسوار أنطاكية سنة ٤٩١ للهجرة ويظل محاصرا لها حتى يستولى عليها سنة ٤٩٢ مؤسسا بها إمارة ، بينما يتسلل بلدوين إلى الرُّها فى سنة ٤٩١ ويستولى عليها دون مقاومة تذكر ويؤسس بها إمارة هى الأخرى . واجتاز الصليبيون جبال النُّصَيْرية محاذين الساحل واستولوا سنة ٤٩٢ على بيت المقدس متخذين منه إمارة ثالثة جعلوا جودفرى رئيسا لها ، ولم يلبث أن رقى عرشها بعده بلدوين الأول وعهدوا إلى الكونت ريموندى تولوز حصار طرابلس والاستيلاء عليها وظلت تقاومه سنين عددا حتى سقطت سنة ٥٠٢ واتخذوا منها إمارة رابعة لهم . وأخذ بلدوين فى نفس السنة ينشط فى غزو مدن الساحل : عكا وقيسارية وصيداء وبيروت وقاومته مقاومة صلبة . وخلفه أخوه بلدوين الثانى الذى استولى على صور سنة ٥١٨ ولم يفلح فى الاستيلاء على دمشق وظلت أيدى الصليبيين أقصر من أن تصل إلى بلدان الشام الداخلية مثل بعلبك ودمشق وحمص وحماة وحلب .

(هـ) آل[1] زنكى (نور الدين)

لم يلبث أن تنبه أتابك عظيم من أتابكة السلجوقيين هو زنكى عماد الدين التركمانى أمير حلب

---

(١) انظر فى آل زنكى ونور الدين التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية لابن الأثير وكذلك كتابه الكامل والجزء الخامس لابن خلدون والخامس والسادس من النجوم الزاهرة والعاشر من المنتظم والمختصر فى أخبار البشر لأبى الفدا والكواكب الدرية فى السيرة النورية لابن قاضى شهبة (طبع بيروت) وابن خلكان ٣٢٧/٢ ، ١٨٤/٥ .

إلى أن الداء إنما يكمن فى تفرق البلدان الإسلامية المجاورة لحملة الصليب شيعا ودولا ، فصمم أن يجمع قوتها وكلمتها تحت لوائه ، وكان قد ركز لواءه على الموصل أولا ، فضم إليه حلب ومدن شمالى الشام مثل حماة وحمص وبعلبك . ومضى ينازل الصليبيين واستولى منهم على معرَّة النعمان وكفر طاب . ولم يلبث أن ضربهم ضربة قاصمة باستيلائه على مدينة الرُّها سنة ٥٣٩ للهجرة . وبذلك محا عار هذه الإمارة التى أقامها الصليبيون فى بلب الدولة السلجوقية . ولم تكد تمضى سنتان على ماحقق من هذا المجد البطولى حتى أمتدت إلى جثمانه الطاهر أيد آثمة فى الظلام سفكت دمه الزكى .

وكان قد أوصى عماد الدين زنكى لابنه غازى بالموصل ولابنه نور الدين محمود بحلب ، واقتفى البطل الشاب نور الدين جهاد أبيه للصليبيين ، ونازلهم توًّا سنة ٥٤٢ وأخذ منهم حصن أرتاح من أعمال حلب ، وأبطل فى إمارته أذان الدولة الفاطمية بحىَّ على خير العمل . وفى سنة ٥٤٤ هزم حَملة الصليب هزيمة ساحقة إذ قتل منهم ألفًا وخمسمائة وفتح حصن فامِيَة ، واستولى على دمشق سنة ٥٤٩ كما مر بنا . وفى سنة ٥٥٢ ملك حصن شَيْرز بعد أن نقضه زلزال شديد . وفى سنة ٥٦٠ فتح بانياس عنوة . وكان بعيد النظر بعدا جعله يرى أن المفتاح الحقيق للنصر على حَملة الصليب هو مصر بإمكاناتها فى المال والرجال ولكن ماذا يصنع وبها دولة منهارة ، وأحسَّ أن حملة الصليب يشعرون أنها لقمة سائغة وخاف عليها منهم خوفا شديدا . ولم تلبث أن واتته فرصة عظيمة فإن وزيريها ضرغاما وشاوَر تحاربا ، ولجأ إليه شاور مستغيثا ، فأنجده بأميرين أيوبيين : شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، ويحدثهما بما فى نفسه من تخليص مصر من دولتها المريضة . وتتطور الظروف وتصبح مصر خالصة لصلاح الدين ويؤسس بها الدولة الأيوبية ومؤسسها الحقيقى ومنشئها إنما هو نور الدين. وكان مابنى ينازل حملة الصليب، وفتح حصون «مرعش وإعزاز وحارم» وغير ذلك مما تزيد عدته على خمسين حصنا. وكان ملكا عادلا عابدا زاهدا ورعًا، بنى كثيرا من المدارس فى بلدان الشام الكبار وكثيرا من الجوامع وبيمارستان دمشق وبها توفى سنة ٥٦٩ وخلفه ابنه وكان صبيا وبقى على حلب حتى توفى سنة ٥٧٧ ودخلت فى حوزة صلاح الدين وحكمه.

٣

الأيوبيون (صلاح الدين) – المماليك – العثمانيون

(١) الأيوبيون[١] (صلاح الدين)

استقرت أمور الحكم وشئون الدولة فى مصر بيد صلاح الدين سنة ٥٦٧ للهجرة، فعاد بمصر إلى الخلافة العباسية ، وسار فى نفس السنة لحرب حملة الصليب فحاصر الشوبك ورفع الحصار عنها ، وعاد إليها فى السنة التالية ثم تركها إلى مصر . وتوفى نور الدين كما ذكرنا وأخذ يفكر جادا فى جمع كلمة البلدان المجاورة للصليبيين حتى يقضى عليهم قضاء مبرما . وخرج من مصر فى سنة ٥٧٠ فاستولى على حمص وحماة والمعرة وكفرطاب ، ويولّى على حماة أخاه تقى الدين وعلى بعلبك ابن أخيه فَرُّخشاه ويستولى على منبج وإعزاز ويواقع الصيليبيين فى السنوات : ٥٧٣ و٥٧٤ و٥٧٥ وينصره الله عليهم نصرا عظيما . ويستولى على الموصل ، وتبلغه وفاة إسماعيل بن نور الدين . ويخرج إلى الشام سنة ٥٧٨ فى جيش جرار لجهاد حملة الصليب ، وهى آخر مرة يفارق فيها مصر لحربهم ويظل ينازلهم عشر سنوات طوالا ، وتتبعه حلب ويولى عليها ابنه الملك الظاهر . وفى سنة ٥٨٢ يقسم البلاد بين أبنائه وأهله فيعطى مصر ابنه العزيز عثمان وكان قد أعطى الظاهر حلب ، ويعطى للأفضل ابنه دمشق ويعطى حماة والمعرة ومنبج لابن أخيه تقى الدين عمر ، وسيتوالى هذا التوزيع . وهو من أكبر أغلاط صلاح الدين فإن بساطا قد يتسع لنوم عشرة من الرجال ولكن مملكة ضخمة لاتتسع لسلطان حاكمين ، ولذلك لم تكد تمضى سنة على وفاته حتى دب الخلاف بين أبنائه ثم بين أمراء أسرته . ويَغْفر له ذلك بلاؤه العظيم فى حرب حملة الصليب المعتدين .

ويقود صلاح الدين فى سنة ٥٨٣ جحافل جرَّارة ويتجه بها نحو طبرية ، وتتجمع له حشود الصليبيين بقيادة جاى لوزيجنان ملك بيت المقدس وتلتقى سريَّة له فى حيفا بجماعة من الداوِّية والإسْبِتارية الذين نذروا أنفسهم لحرب المسلمين فلا تبقى منهم باقية ، ويلتقى الجمعان فى سهل حطِّين إلى الغرب من بحيرة طبرية ، وتُدَقُّ أعناق حَملة الصليب دقا شديدا ويفرّ على وجهه ريموند

(١) انظر فى الأيوبيين وصلاح الدين كتب التاريخ العام: ابن الأثير وابن خلدون وخطط المقريزى ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزى، ومفرج الكروب لابن واصل والروضتين وذيل الروضتين لأبى شامة والفيح القدسى فى الفتح القدسى والبرق الشامى للعماد الأصبهانى وسيرة صلاح الدين لابن شداد، وابن خلكان فى تراجم صلاح الدين وسلاطين الدولة الأيوبية. وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٣٥٠ عدا ماكتب عن صلاح الدين فى العربية حديثا وفى اللغات الأجنبية.

صاحب طرابلس ويستولى المسلمون على الصليب الأعظم صليب الصلبوت ، ويؤسر ملك بيت المقدس وغيره من زعمائهم أمثال مقدم الداوية وريجنالد صاحب الكَرَك وكان قد أعدَّ أسطولا وحاول غزو مكة والمدينة فقتله صلاح الدين بنفسه وعفا عن الباقين . وبلغ من كثرة القتلى والأسرى أن قال أبو شامة : «من شاهد القتلى قال : ما هناك أسير ، ومن شاهد الأسرى قال : ما هناك قتيل» ومما يدل على كثرة أسراهم أن الأسير منهم كان يباع بثلاثة دنانير .

وحاصر صلاح الدين بيت المقدس بعد نحو ثلاثة أشهر ، واستسلم له من فيه من حملة الصليب وأُزيلت كل آثارهم من القدس ، وفتحت البلدان والقلاع فى فلسطين وجنوبى لبنان أبوابها للبطل العظيم ، فاستولى على نابلس وحيفا وعكا وبيروت وصيداء والرملة وبيت جبريل (بئر سبع) وعسقلان وغزة وصَفد والكَرَك والشوبك واللاذقية . وأحيا سقوط القدس فى يد صلاح الدين فكرة الحرب الصليبية من جديد ، فحمل الصليبَ فردريك الأول إمبراطور ألمانيا وفيليب ملك فرنسا وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا وحاصر الأخيران عكا وسقطت فى أيديهما وعاد فيليب إلى فرنسا وظل ريتشارد يقود الجيوش الصليبية حتى سنة ٥٨٨ وعقد صلحا مع صلاح الدين لمدة ثلاث سنوات وثلاثة أشهر على أن تظل لحملة الصليب المدن الساحلية من صور إلى يافا . وبعد نحو ستة أشهر توفِّى صلاح الدين بدمشق وبكاه المسلمون بدموع غزار فى كل مكان . وكان صلاح الدين عادلا ورعا عالما تقيا ، حطَّ عن ظهور أهل الشام ما كان يبهظهم من الضرائب وملأها بالمدارس والخانقاهات والبيمارستانات وكانت سماحته ونبله فى معاملة حَملة الصليب مضرب الأمثال ، وكان إلى ذلك بطلا مغوارا وغيثًا مدرارا .

وذكرنا آنفا أنه قسم البلاد بين أبنائه وأهل بيته ، فكانت دمشق للأفضل ومصر للعزيز وحلب للظاهر ، والديار الفراتية لأخيه العادل وبعلبك لبهرام شاه وحمص لشيركوه الثانى . وكان ذلك نذير شؤم فإن العادل أخذ يحرِّض أبناء صلاح الدين بعضهم على بعض واستطاع التخلص منهم . وخلصت له البلاد من مصر إلى الفرات منذ سنة ٥٩٦ ماعدا حلب فإنها ظلت مع الظاهر وأبنائه حتى الغزو المغولى . وصنع صنيع أخيه فجعل مصر للسلطان الكامل ودمشق للسلطان المعظم والجزيرة الفراتية لثلاثة من أولاده على التعاقب هم الأوحد والفائز والأشرف موسى . ويغزو حملة الصليب مصر فى سنتى ٦٠٩ و٦١٥ وينكل بهم السلطان الكامل على نحو ماصورنا ذلك فى قسم مصر . ونمضى إلى سنة ٦٢٦ وإذا فردريك الثانى ملك صقلية يأتى على رأس حملة إلى فلسطين

وتصادف أن كان الكامل مشغولا بصراع مع داود ابن أخيه المعظم عيسى صاحب دمشق فارتضى أن يتنازل لفردريك عن القدس فى مقابل عونه له ضد ابن أخيه وكان قد استعان بأخيه الملك الأشرف موسى ضده أيضا وحاصراه وتسلما منه دمشق وأعطاها الكامل لأخيه وعوض داود الشوبك بدلا منها .

وبمجرد أن تسلم فردريك القدس قامت قيامة الناس فلم يقم بها سوى ليلتين وعاد إلى يافا مذموما مدحورا . وتوفى الأشرف موسى صاحب دمشق سنة ٦٣٥ ولم يلبث أخوه الكامل أن توفى على أثره فى نفس السنة بدمشق ، وكان ابنه الأكبر الملك الصالح نجم الدين أيوب نائبا له على الشرق وإقليم ديار بكر ، وكان ابنه العادل الصغير نائبا له على مصر فرأى أمراؤه أن يضيفوا إليه ملك الشام ، ولم يُرْضِ ذلك الملك الصالح فنحَّى أخاه فى سنة ٦٣٧ عن ملك مصر وانتهز عمه إسماعيل صاحب بعلبك الفرصة واستولى فى نفس السنة على دمشق ونشب صراع بينه وبين الملك الصالح واستعان ضده بحملة الصليب وعقد بينه وبينهم تحالفا أثار سخط العالم الإسلامى ، وهزم الملك الصالح الحليفين فى غزة سنة ٦٤٣ ودخلت دمشق فى حوزته .

وبذلك أعاد الملك الصالح توحيد مملكة صلاح الدين من النيل إلى الفرات ، ولم ينعم بذلك طويلا إذ نزل به مرض شديد سنة ٦٤٧ وكان بدمشق وسمع بنزول لويس التاسع بدمياط ، فأسرع لمنازلته وهو مريض محمول على محفَّة لشدة مرضه ، واتجه توًّا للقاء العدو بالمنصورة شمالى الدلتا فى الطريق إلى دمياط ، وهناك لبَّى نداء ربه مجاهدا مدافعا عن الإسلام والمسلمين . وكتمت زوجته شجرة الدر موته حتى قدم ابنه المعظم توران شاه من الجزيرة وأدار المعركة ضد لويس – كما مر بنا فى قسم مصر – وسحق جيشه سحقا ذريعا ، وكبله بالسلاسل والأغلال ، إلى أن فدا نفسه وخرج من مصر . وسوَّلت له شياطينه أن يذهب إلى حملة الصليب فى الساحل الشامى لعله يسترد كرامته التى أُهدرت بمصر وبقى بين حملة الصليب نحو أربع سنوات لم تسفر عن شىء ، فعاد إلى فرنسا كاسفا مقهورًا . أما توران شاه فجزاه مماليك أبيه جزاء سنمار إذ سفكوا دمه الطاهر . ورقيت إلى العرش شجرة الدر ثم تنازلت عنه للمعز أيبك مملوك أبيه فأسس دولة المماليك . أما دمشق فاستولى عليها الناصر يوسف الأيوبى صاحب حلب . وكان آخر من حكمها من الأيوبيين .

(ب) المماليك[١]

تأسست فى مصر بعد مقتل توران شاه سنة ٦٤٨ دولة المماليك ، وعدَّهم الحكام الأيوبيون فى الشام مغتصبين للحكم من أصحابه الشرعيين ، وأعدوا بزعامة الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب جيشا لحربهم ، ولقيه المعز أيبك التركمانى فى غزة سنة ٦٤٨ وهزمه . وظلت العلاقات سيئة بين الطرفين حتى أصلح الخليفة العباسى بينهما لسنة ٦٥١ على أن يكون للمماليك نهر الأردن ونابلس والقدس وغزة والساحل ، وللأيوبيين بقية الشام ، وقد دفعهما إلى هذا الصلح اشتداد خطر التتار . وحاول الناصر يوسف أن يسترضى قائد هذا الوباء هولاكو سنة ٦٥٥ فأرسل إليه بهدية ، ولم يلبث هولاكو أن اندفع بسيول التتار إلى بغداد سنة ٦٥٦ فأجرى الدماء فيها أنهارا وخرَّبها وأحالها أنقاضا ، ودخل هولاكو فى السنة التالية ديار بكر ومَلَك حرَّان وبلاد الجزيرة ، وتحقق الناصر أنه سيقصد حلب فتركها إلى شمالى دمشق ، وفى شهر صفر سنة ٦٥٨ استولى التتار على حلب معملين فيها النهب والسلب ، وتقدموا فى ربيع الأول إلى دمشق واستولوا عليها ، وفرَّ الناصر يوسف وأسره التتار ، وبقى معهم فى ذلّ وهوان مابعده هوان .

ومضى التتار يتقدمون فى ديار الشام حتى عين جالوت بين نابلس ونيسان ، وإذا الموت والتشريد ينتظرهم على يد المصريين والبطلين العظيمين المملوكين : قطز سلطان مصر والظاهر بيبرس قائده ، وقد أحدقوا بهم ونازلوهم حتى أفنوهم قتلا . وتبع بيبرس فلولهم إلى حلب وأطراف الشام . وأصبحت جميع الديار الشامية فى قبضة المماليك ماعدا حماة فإن أميرها الأيوبى الملك المنصور ناصر الدين محمد سليل عمر بن شاهنشاه كان قد وضع يده فى يد قطز وبيبرس فى حربهما للتتار وظل على حماة حتى سنة ٦٨٣ وولاها قلاوون ابنه تقى الدين واستولى عليها الناصر بن قلاوون سنة ٦٩٨ ثم ردها إلى الملك الصالح المؤيد أبى الفدا إسماعيل سنة ٧١٠ وظلت معه حتى سنة ٧٣٢ ووليها بعده ابنه الأفضل ثم أصبحت للمماليك يولون عليها من يشاءون مثلها مثل بقية بلدان الشام .

وعُنى الظاهر بيبرس حين أصبحت مقاليد الأمور بيده منذ سنة ٦٥٩ بالإعداد لحرب من تبقى من حملة الصليب فى ساحل الشام وأخذ يغير عليهم وينازلهم ، حتى إذا دخلت سنة ٦٦٤ خرج

---

(١) انظر فى المماليك النجوم الزاهرة وغيره من كتب التاريخ العام والسلوك للمقريزى والمختصر فى أخبار البشر لأبى الفدا والبداية والنهاية وبدائع الزهور لابن إياس وتاريخ الدول والملوك لابن الفرات وسيرة الملك المنصور (قلاوون) طبع القاهرة والتبر المسبوك فى ذيل السلوك للسخاوى وآخرة المماليك لابن زنبل وبروكلمان ص ٣٦٥.

إليهم على رأس جيش جرار واستولى على قَيْسارية ويافا وأرسوف وكان بها حامية من الإسْبتارية الذين نذروا أنفسهم لحرب المسلمين . وفى العام التالى استولى على صَفد وتِبْنين والرملة فى فلسطين . وتوالى هجومه عليهم واستولى على الشّقيف وطبريَّة وبَغْراس والقُصَيْر وحصن الأكراد والقرين من حصون صفد وكان به حامية من الفرسان التيوتون . وأعظم أمجاده الحربية ضد حملة الصليب أخْذُه أنطاكية سنة ٦٦٧ ويقال إن أسراها بلغوا مائة ألف وأن الغلام من أهلها كان يباع باثنى عشر درهما والجارية بخمسة . والمهم أنه محا هذه الولاية التى أقامها حملة الصليب فى أول دخولهم للشام . وبدا فى الأفق من حينئذ أن خروج حملة الصليب نهائيا من الشام أصبح قاب قوسين أو أدنى ، وقد استولى منهم قلاوون فى سنة ٦٨٦ على اللاذقية ولم يلبث ان استولى على طرابلس فى سنة ٦٨٨ وبذلك أزال آخر إمارة أو ولاية لحملة الصليب ، وسرعان ماسلمت بيروت وجبلة . حتى إذا تولّى بعده ابنه السلطان خليل جهز جيشا ضخما للاستيلاء على عكا واستولى عليها سنة ٦٩٠ وتبعتها صوروصيداءوحيفا وأنْطَرْطوس ، وخرج من بقى من الصليبيين إلى البحر المتوسط وما وراءه يحملون الذل والضعة والهوان والصغار .

وقد قسم المماليك الشام إلى ست نيابات كبرى هى : دمشق وحلب وحماة فى سوريا وطرابلس فى لبنان وصفد فى فلسطين والكرك فى شرقىّ الأردن . وكانت دمشق أهم هذه النيابات ، وكان حاكمها يعد نائب السلطان المملوكى فى الشام مما أتاح له مكانة خاصة . وجعل نفرا منهم غير قليل يطمح إلى أن يكون هو السلطان التالى للسلطان القائم بمصر ، ولعل ذلك ماجعل سلاطين مصر يكثرون من عزلهم ، حتى ليتولى دمشق فى زمنهم الذى امتد نحو مائتين وخمسة وسبعين عاما أربعة وسبعون نائبا . وقد درسهم (قييت) وتبين له كما ذكر فى كتابه مساجد القاهرة ص ٥٦ : أن اثنين منهم هما لاجين (٦٩٦–٦٩٨) والمؤيد شيخ (٨١٥–٨٢٤هـ) رقيا إلى السلطنة ، وسبعة وعشرين منهم ثاروا على السلطان فرّ منهم خارج الحدود اثنان وسجن خمسة وأعدم خمسة وعُفى عن خمسة . وكان لنائب دمشق من الدواوين مثل مالسلطان مصر وكثيرا ما كان ينقل رئيس ديوان فى القاهرة إلى دمشق وبالعكس ، وكثر ذلك فى كتّاب السر والإنشاء . وبذلك كله كانت دمشق تعد المدينة الثانية فى دولة المماليك مما عاد عليها بغير قليل من الازدهار . وأمر الظاهر بيبرس فى سنة ٦٦٣ أن يتولى القضاء أربعة يمثلون مذاهب أبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل وعمّ ذلك فى دمشق والمدن الكبرى بمملكته فى مصر والشام . وظل هذا النظام قائما طوال زمن المماليك .

وظل التتار يئنُّون من عار الهزيمة الفاضحة فى عَيْن جالوت ، وظلوا يحاولون غسل هذا العار بغارات فاشلة على أطراف الشام ، وكَسَرَتْهم جيوش الظاهر بيبرس مرارا ، من ذلك كَسْرتهم على حمص سنة ٦٥٩ ، وأغاروا على إلبيرة سنة ٦٦٤ وعلموا بتحرك بيبرس فولوا مدبرين . وفى سنة ٦٦٨ أغاروا على نهر الساجور بمنبج ، وسرعان ما انهزموا ، وعاودوا الهجوم على عِيْنتاب وحارم سنة ٦٧٠ وساعدهم حملة الصليب فحاقت بهم الهزيمة جميعا . وظلوا يعاودون المناوشة وهاجموا إلبيرة فى سنة ٦٧١ وأشرفوا على أخذها فعبر إليهم الظاهر الفرات وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وتغنى الشعراء طويلا بهذا النصر المبين ، ونكل بهم فى سنة ٦٧٥ تنكيلا شديدا . وظل التتار يعاودون هذه الغارات والمناوشات فى عهد قلاوون ويبوءون منها بالهزيمة ، وقد استولى منهم ابنه السلطان خليل على قلعة الروم غربى الفرات سنة ٦٩٢ . وتولى شئون التتار غازان وكان قد دخل فى الإسلام مع جنوده . ومع ذلك أعد فى سنة ٦٩٩ حملة لغزو الشام ولقيه محمد الناصر بن قلاوون بين حمص وحماة ودارت الدوائر على الناصر ، واستولى جيش غازان على دمشق وغيرها من مدن الشام وعاثوا فيها فسادا . وعاد الناصر إلى مصر وجهز جيشا جرارا التقى به مع التتار قرب دمشق سنة ٧٠٢ وسحقهم سحقا ذريعا ، بحيث لم يعودوا يفكرون فى غزو الشام وإن هم فكروا ارتدوا إلى صوابهم سريعا .

ونمضى إلى سنة ٨٠٣ فيقدم تيمورلنك بجموعه غازيًا الشام ، ويلقاه جيش المماليك ، فيهزمه ويقتحم حلب ويُعْمل فيها السيف والسلب والنهب ، ويتقدم إلى دمشق وينزل بالسلطان فرج فى طريقه إليها هزيمة نكراء . وترضى دمشق بالتسليم وينهبها جنوده التتار ويشعلون فيها النيران وتأتى على جامعها الأموى وعلى كثير من آثارها ، ويقتلون مالا يكاد يحصى من أهلها نساء ورجالا وأطفالا : كارثة لم يُصب دمشق مثيلٌ لها لا من قبل ولا من بعد . وضاعفها أن تيمور جمع رجال الفن والهندسة والمعمار وصناع الزجاج والصلب وأخذهم معه إلى عاصمته سمرقند .

وتتحدث كتب التاريخ عن ثورات وفتن حدثت فى الشام لعهد المماليك ، غير أن أكثرها إن لم تكن كلها ، إنما كانت صراعا على السلطة بين السلاطين ونوابهم فى الشام . ومن هذا الصراع ماحدث من تحول الملك من المماليك البحرية إلى المماليك البرجية الجراكسة على يد بَرْقوق سنة ٧٨٤ . وقد عانت الشام – كما عانت مصر – منْ النزاع المستمر بين أمراء المماليك ، حتى كانوا يقتتلون كل مع أنصاره فى شوارع دمشق والقاهرة . وكثر ذلك فى القرن الأخير من حكم

المماليك ، وأخذت دولتهم فى الضعف تدريجا حتى لفظت أنفاسها الأخيرة فى معاركها مع السلطان سليم العثمانى على أبواب الشام فى مَرْج دابق.

(جـ) العثمانيون[1]

قضى سليم الأول العثمانى على دولة المماليك فى الشام ومصر بعد هزيمته لقانصوه الغورى فى موقعة مرج دابق سنة ٩٢٢ للهجرة. وبعد أربعة أيام من الموقعة دخل حلب ولقيه أهلها بترحاب شديد وأوقدوا له الشموع وتعالت أصواتهم له بالدعاء، وخطبوا له على منابرها. وفتحت له مدن الشام أبوابها. فاستولى على دمشق وقصده فيها أمراء لبنان وخاصة من بنى مَعْن الدروز النازلين بجبالها مما جعل سليما ومن خلفوه من سلاطين آل عثمان يعترفون لهم بالإمارة فى لبنان. ومضى سليم يستولى على بقية مدن الشام. وفتح مصر وظل بها ثمانية أشهر وعاد منها إلى دمشق، ورأى بوضوح تدهور الأوضاع الاقتصادية فى تلك الديار بسبب اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح والنفوذ منه إلى الهند ونقل توابلها وتجاراتها منه مما أضر إضرارا شديدا بطريق البضاعة الهندية القديم خلال حلب والشام. وكانت حروب الصليبيين والتتار التى حوَّلت الشام إلى ساحة حرب كبيرة لمدة قرنين من الزمان قد أحالت أجزاء كثيرة من مدنها إلى خرائب وخاصة مدن الساحل. وكأنما توسَّم أهل الشام أن العثمانيين سيعيدون إلى طريق التجارة الهندية ازدهاره الماضى، ولذلك رحبوا بسليم والعثمانيين، وتلاشى هذا الحلم مع الأيام. وكان قد فرَّ إلى سليم من المماليك مملوك خائن هو الغزالى الذين زين له فتح الشام ومصر فكافأه بتوليته على الشام ما عدا حلب إذ جعلها لبعض الباشوات العثمانيين. وبمجرد أن توفى سليم الأول سنة ٩٢٦ أعلن الغزالى استقلاله بالشام ولقب نفسه بالملك الأشرف، وسرعان ما هزمته الجيوش العثمانية وخرَّ صريعا عند أبواب دمشق. ورأى العثمانيون أن تتوزع الشام ثلاث نيابات على رأس كل نيابة باشا: أولاها نيابة حلب وتشمل سوريا الشمالية، وثانيتها نيابة طرابلس وتشمل أربعة سناجق أو ألوية هى: حمص وحماة وسلمية وجبلة، وثالثتها نيابة دمشق وتشمل عشرة سناجق أهمها بيروت وصيداء ونابلس وبيت المقدس وغزة. وفى سنة ١٠٧٣ خصوا صيداء بنيابة مستقلة تشمل ساحل الشام ماعدا نيابة طرابلس فى لبنان.

---

(١) انظر فى العثمانيين بالشام بدائع الزهور لابن إياس، وآخرة المماليك لابن زنبل وتاريخ الجبرتى والخطط التوفيقية لعلى مبارك والبلاد العربية والدولة العثمانية لساطع الحصرى، ومقدمة تاريخ العرب الحديث لعبدالكريم غرايبة وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص٤٤٨، وتاريخ العرب (مطول) لفيليب حتى.

وكان يساعد الوالى فى الإدارة ديوانان : ديوان كبير مؤلف من السردار أو رئيس العسكر والدفتردار أو مدير الخزانه والروزنامجى أو حافظ السجلات وقاضى القضاة وأمير الحج ورؤساء المذاهب الفقهية الأربعة . وبجانب هذا الديوان ديوان صغير خاص بنائب الوالى ومعه دفتردار وروزنامجى .. وُمنح أصحاب السناجق أو الألوية لقب بك . وكثير من الولاة كانوا يختارون من الإنكشارية وهم شُبَّان أوربيون من أجناس مختلفة كانوا يُرَبَّوْنَ تربية إسلامية عسكرية ، وكان هم الوالى منهم أن يجمع لنفسه فى مدة ولايته القليلة مايستطيع من الأموال مما جعلهم يرهقون أهل المدن بالضرائب ، وقلما كان حكم الوالى يتجاوز المدينة وضواحيها . أما داخل البلاد فقد تُرك للإقطاعيين من سكان الشام ومَنْ وراءهم من بدو الجزيرة ، وكان عددهم قد تزايد زيادة كبيرة منذ زمن المماليك ، وكان أكثرهم من الدروز مثل آل معن وآل أرسلان والشهابيين ومن التركمانيين مثل آل عساف ومن البدو مثل آل فضل . وفى كل مكان نجد هؤلاء الإقطاعيين مثل آل حرفوش ببعلبك وآل فريح فى البقاع وآل جبار فى سلمية ، ولم يكونوا يؤدون للعثمانيين أو الباب العالى إلا ضرائب محدودة ، وخاصة أن الموارد كانت قد تضاءلت إذ تدهورت التجارة وتدهورت أيضا الزراعة . ويدل على فساد الحكم العثمانى واضطرابه فى الشام كثرة من كانوا يولَّون ويعزلون من الولاة ، حتى ليولَّى على دمشق فى مائة وثمانين عاما مائة وثلاثة وثلاثون باشا أو واليا ، مما جعل فخر الدين من آل معن الدروز (٩٩٠–١٠٢٣هـ) يسيطر على أكثر أرجاء الشام من أنطاكية إلى صفد لنحو نصف قرن ، وأذن لفلورنسا بإقامة قنصلية لها فى بلاده ولم ير بأسا من الإذن لفرنسا بفتح فندق فى صيداء وأذن للمبشرين المسيحيين بالتبشير بين المسلمين والدرّوز . وتنبهت له أخيرا الدولة العثمانية فأرسلت إليه جيشا لتأديبه ففر من البلاد راكبا البحر إلى صديقه فرديناند أمير توسكانيا . ونمضى إلى سنة ١١٦٤ هـ/١٧٥٠ م فيبسط ضاهر العمر صاحب صَفد سلطانه على عكا ويعلن استقلاله وعصيانه للباب العالى بفضل معونة على بك الكبير المملوك المشهور أيضا بعصيانه للعثمانيين ومحاولته الاستقلال عنهم بمصر . ويحاصر العثمانيون ضاهر العمر وتدركه المنية سنة ١١٨٩هـ/١٧٧٥م . ويليها بعده أحمد الجزار ويلعب دورا شبيها بدور ضاهر العمر ويحصِّن عكا . وعبثا يستطيع نابليون فتحها ويضطر إلى رفع حصاره عنها بعد ثلاثة أشهر ، إذ باء حصاره لها بالإخفاق الذريع سنة ١٢١٣ هـ/١٧٩٩ م . وكانت الأحوال الاقتصادية فى الشام تتردَّى من سيئ إلى أسوأ طوال الحكم العثمانى ، وظل كابوسه جاثما على صدر البلاد طوال القرن التاسع عشر الميلادى بل طوال شطر كبير من العصر الحديث .

٤

المجتمع [١]

حين دخل العرب الشام وجدوا فيها أخلاطًا من أجناس شتى لموقعها على أبواب آسيا الغربية وفى قلب الشرق القديم ولكثرة من نزلوها من الكنعانيين الفينيقيين ومن الفلسطينيين الأوربيين القدماء وكثرة المهاجرين إليها من البابليين والكلدانيين والحيثيين والآشوريين والآراميين والعبرانيين واليونانيين والرومانيين ومن العرب أنفسهم : الغساسنة وغير الغساسنة . وهذا الخليط من الاجناس فى الشام ربما هو الذى هيأها من قديم لأن تكثر فيها الدويلات والمدن المستقلة بعضها عن بعض .

وأخذ الإسلام سريعا يضم هذا الشتات الجنسى فى وحدة سياسية ، بل سرعان ما أصبح لواء الشام يضم العالم الإسلامى جميعه فى وحدة عربية منذ رقى إلى عرش الخلافة معاوية مؤسس الدولة الأموية ، إذ اتخذ دمشق حاضرة لهذا العالم ، واتخذ من أهلها عونه فى الحكم وإدارة دَفَّة الأمور فى هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف . وبذلك كانت كنوز هذه الإمبراطورية تتدفق إلى دمشق والشام وعاش أهلها طوال العصر الأموى فى رخاء لم يبلغه هذا الاقليم فى أى عصر من عصوره .

ومر بنا وصف سريع لجغرافيتها وأنها كثيرة الأنهار والوديان والعيون والزروع ، ومن قديم تنتج العنب والفواكه وصنوف النُّقْل من فستق وغير فستق إلى ماتنتج من قمح وغير قمح . ومن قديم أيضا عُنى أهلها بالصناعات : صناعات الخزف الملون والخشب المحفور أثاثا وغير أثاث والمعادن والأسلحة سيوفا وغير سيوف والزجاج الملون والقاشانى ونقش الفولاذ بالذهب والفضة ونسج الأقمشة والعمارة .

وحياة الشام بذلك كانت تقوم على إتقان كثير من الصناعات والزروع ، وأيضا على المهارة فى التجارة ، وكانت نافذة كبرى لتبادل تجارات آسيا وأوربا من قديم ، وظلت تجاراتها تكوِّن مصدرا أساسيًّا لثروتها فى عهد الفينيقيين وبعدهم حتى احتلال العثمانيين لديارها ، فقد كانت من أعتق

---

(١) انظر فى مجتمع الشام كتب التاريخ العام وفتوح البلدان للبلاذرى وأدب الكتاب للصولى وذيل تاريخ دمشق لابن القلانسى وثمرات الأوراق لابن حجة الحموى والجباية فى الشام لمحمد كرد على فى الجزء الأول من محاضرات المجمع العلمى العربى بدمشق .

الأزمنة إلى نهاية زمن المماليك الباب الكبير لمرور توابل الهند وعُروض آسيا إلى الغرب . ومهر أهلها فى التجارة ومعرفة أسرارها والقدرة على إغراء الأسواق التجارية ومعرفة متطلباتها من لُبان جنوبى الجزيرة العربية ونباتات العطور والعقاقير ، مما أتاح لكثير من تجارها على مر الأزمنة الثراء الطائل .

وتحفُّ الشامَ فى الشرق بوادى الجزيرة العربية ، وكان لذلك أثره البعيد فى تكوين سكانها فأكثرهم نزحوا إليها قديما من الجزيرة على نحو ماهو معروف عن الكنعانيين والآراميين والعبرانيين ، وقد ظلت أبوابها الشرقية مفتوحة على مصاريعها لبدو الجزيرة ، مما جعل الغساسنة يقيمون على الحدود بينها وبين الجزيرة دولتهم الغسانية . ولايقفون هم ومن كانوا وراءهم من البدو عند الحدود بل يتغلغلون إلى داخل الشام ، حتى ليمكن أن يقال إنه قد أخذ فى التعرب قبل الإسلام . وظل بدو الجزيرة طوال الأزمنة الإسلامية يكوِّنون شطرا مهما فى سكان الشام ، وكان الشطر الثانى ، وهو الأكبر ، متحضرًا ويقيم فى المدن . وبذلك كان سكان الشام ينقسمون طوال الحقب الإسلامية إلى بدو وحضر . وكان البدو يعتمدون على الأغنام والأنعام ، بينما كان الحضر يعتمدون على الزراعة والصناعة والتجارة . وكان حكام مصر والشام يقرِّبون زعماء البدو ، ولكى يدرءوا عن الشام شرهم كانوا أحيانا يُقْطعونهم بعض مدن فلسطين على نحو ما هو معروف من إقطاع الفاطميين للمفرِّج بن دغفل مدينة الرَّمْلة .

على كل حال كان اعتماد الشام فى حياتها الاقتصادية طوال الحقب الإسلامية على سكان الحضر ومايؤدونه للدولة من الخراج والعشور والجوالى أو الجزية ، وكانت ضريبة محدودة قلما زادت عن دينارين ، وكانت تؤخذ من أهل الكتاب : النصارى واليهود نظير عدم انتظامهم فى الجيش العربى . وهى بذلك كانت ضريبة دفاع ولم تكن تؤخذ إلا من القادرين ، أما النساء والأطفال والشيوخ والقساوسة والرهبان فلاتؤخذ منهم البتَّة .

وحين عقد عمر بن الخطاب مؤتمر الجابية سنة ١٦ للهجرة أوصى عماله أن يرفقوا بالرعية فيما تؤدى من ضرائب للدولة ، وبلغ خراج الشام على عهده – كما يقول الصولى – خمسمائة ألف دينار . وبمجرد أن أصبحت الخلافة خالصة لمعاوية جعل خراج كل من دمشق وقنسرين أربعمائة وخمسين ألف دينار ، وخراج كل من فلسطين والأردن مائة وثمانين ألفا . وأخذ يهب بعض أصفيائه إقطاعات واسعة ، وتارة يكون الإقطاع إقطاع تمليك ، وتارة يكون إقطاع استثمار ، وكان عثمان بن عفان أول من سنَّ هذه السنة فى الإسلام .

وجاءت معاوية كنوز الأرض فكان يكثر من توزيعها على الشخصيات المهمة فى قريش

والأنصار وعلى زعماء القبائل فى الجزيرة العربية والعراق ، وعُنى عناية واسعة بأبهته ونفقاته . وبنى لنفسه دارًا كبيرة فى دمشق سماها « الخضراء » ودورا أخرى فى مكة ، وسنَّ للخلفاء الأمويين من بعده البذخ . ويُرْوَى أنه كان يستقبل من عماله هدايا العيدين الفارسيين : عيد النَّيْروز وعيد المهرجان ، ولابد أن كانت تقدم له الهدايا فى أعياد النصارى لما انعقد بينه وبينهم من علاقة وثيقة ، ولما منحهم من الإشراف على الشئون المالية للدولة ، وخاصة سرجيوس وأسرته ، وأيضا لابد أن كانت تقدم ل الهدايا فى الأعياد الإسلامية .

ويبدو أن الدولة ظلت تنعم برخاء واسع بعد معاوية ، مما دفع الوليد بن عبدالملك إلى تشييد الجامع الأموى بصورة هندسية بالغة الفخامة فى زخرفته وتصويره ، وقد استقدم — كما مرَّ بنا — لصنع الفُسَيْفساء فى جُدره وفصوصه اثنى عشر ألف عامل من بيزنطة ، غير من استقدمهم فى تشييده ونقشه من مصر وفارس ، وقد مُثِّلت فيه أشجار وفرِّعت أغصان منظومة بالفصوص المذهبة ، ويقال إنه أنفق فيه خراج الشام سنتين وكان خراجها على عهده مليون دينار ومائتى ألف ، وفى رواية أنه أنفق عليه أحد عشر مليونا من الدنانير ومائتى ألف . وعُدَّ الجامع عجيبة من عجائب الدنيا ، وبه حظيت دمشق بمجد وشهرة عظيمين . ويبدو أن الوليد زاد ، بسبب هذه النفقة الباهظة على جامعه ، الضرائب على أهل الشام ، أو لعل أخاه سليمان الذى خلفه هو الذى صنع ذلك . ويخلفه عمر بن عبدالعزيز فيأمر عماله أن يأخذوا أهل الكتاب من النصارى واليهود بالرفق وأن تُمْنَعَ السخرة منعا باتا كما يمنع أخذ الضرائب على الجسور والمعابر وأن يكتفى فى المعادن بالصدقة ولايؤخذ منها العشر . وأمر أمرا صارما أن تُرْفعَ الجزية عمن أسلموا من الموالى بحيث يسوَّى بينهم وبين المسلمين فى الخراج والعشور . ويتوفَّى عمر فيعود العمال إلى الضرائب الاستثنائية ظلما وعدوانا . ولابد أن نذكر للأمويين أن الشام كانت تحظى برخاء غير قليل فى أيامهم ، ويشهد بذلك ماشادوه فى دمشق والبوادى من قصور ، وقد أصبحت دمشق بفضلهم عاصمة ومدينة عربية كبرى .

وكان المجتمع الشامى فى دمشق وغير دمشق يتألف من ثلاث طبقات : عليا ووسطى ودنيا ، والطبقة الأولى تشمل الحكام وكبار الموظفين فى الدواوين وأصحاب الثراء الطائل من التجار والإقطاعيين . وتشمل الطبقة الوسطى العلماء وأوساط الزراع والتجار والصناع ، أما الطبقة الدنيا فهى طبقة العامة من صغار الفلاحين والعمال . وكان يتبع هذه الطبقة الرقيق الذى يؤسر فى الحروب أو يبيعه النخاسون ، وكان أخلاطا من البيزنطيين والأوربيين والإفريقيين . وظلت هذه

الصورة لطبقات المجتمع الشامى متصلة طوال الحقب التالية ، مع ماحدث للشام من تحول الخلافة منها إلى بغداد ، ومن مشرفة على الدولة الإسلامية الكبرى إلى ولاية منذ أن استولى العباسيون على أداة الحكم . وكان من أهم أعمالهم فيها إنشاء المراكز العسكرية على حدودها مع الروم المعروفة باسم العواصم والثغور ، وكانت جيوشهم ماتنى تخرج منها لحرب الروم . محدثة فيها غير قليل من الرواج التجارى .

وكان العباسيون فى القرن الأول من خلافتهم يأخذونها بغير قليل من الرفق واللين . ويروى أن بعض ولاة الخراج بها لعهد هرون الرشيد شدَّد فى استخراج الأموال من أهلها فسخط عليه الرشيد سخطا شديدا وأنزل به عقابا صارما ، قائلا له : وليت الشام وهى جنات وعيون وجعلتها أجردَ من الصخر وأوحش من القفر . وحين ضمها ابن طولون إلى دولته فى مصر أخذت تنتعش وخاصة فى عهد خمارويه لكثرة ما كان يُجْرى على الناس فى رعيته بمصر والشام من الأموال ولما كان ينفقه على جيشه بها من الارزاق ، وقد بنى لنفسه بالقرب من دمشق قصرًا فخما . وعُنى الإخشيد بالشام ، كما عنى بها كافور . وكانا يكثران من الخلع والهبات على أهلها ، وكانت حلب والثغور بيد الحمدانيين وفرضوا فيها ضرائب ثقيلة[1] .

وتتبع بقية الشام مصر أيام الفاطميين حقبا متصلة . وعلى الرغم من أن المقدسى يقول إن ضرائب العروض والسلع التجارية فيها هينة لزمنه فى أواخر القرن الرابع الهجرى فإن من المؤكد أن الضرائب زادت واضطربت تبعا لكثرة الولاة الفاطميين وعملِ كل منهم على جمع كل مايستطيع من الأموال لنفسه ، فكانت تدخل على الضرائب والجبايات زيادات ترهق الشعب الشامى إرهاقا شديدا . وبلغ هذا الارهاق غايته فى ولاية المعلى بن حيدرة الكتامى لها سنة ٤٦١ ، حتى هجر الفلاحون مزارعهم فى الغوطة بدمشق وغير الغوطة ، وعظم شغب العامة سخطًا على هذا الظلم الصارخ وشبت النار حينئذ فى الجامع الأموى العظيم ، وكادت أن تذهب ببهائه ورونقه لولا أن تداركه الناس . ولعل أحدًا لم يصور ما كان يقع على أهل الشام من ظلم فادح فى جمع الضرائب دون أن تُسْتَخْدَمَ فى مصالح الرعية كما صوَّر ذلك أبو العلاء ساخطا بمثل قوله :

وأرى ملوكا لاتَحوطُ رعيَّةً ... فعلامَ تُؤْخَذُ جزيةٌ ومكوسُ

ومانصل إلى سنة ٤٦٨ حتى تتحول دمشق إلى السلاجقة ، وينحسر الحكم الفاطمى إلى

(١) اضطرت الحمدانيين إلى ذلك حروبهم مع بيزنطة . ويقول المقدسى إن الضرائب كانت ثقيلة حينئذ على العواصم والثغور وإنها كانت ثلاثمائة وستين ألف دينار .

الجنوب . ومانكاد نشرف على نهاية القرن الخامس حتى تأتى جحافل الصليبيين وتستولى على ساحل الشام منذ سنة ٤٩٢ . ويتدارك طُغْتِكين أتابك الدولة البورية نسخة من النسخ القرآنية التى وزعها عثمان فى الأمصار كانت بطبريَّة فينقلها إلى دمشق ، وكان ذلك عملا جليلا زاد دمشق مجدا وجلالا ، وخلص له الأمر بها . ومن أهم ماقام به بناء مارَستان وخانقاه وأول مدرسة أنشئت بها . وتصبح الشام ساحة حرب كبرى أيام الصليبيين ، ولايقرُّ لأهلها قرار .

وأخذ حكام الشام من الأرتقيين أصحاب دمشق وغيرهم يضيفون بعض ضرائب استثنائية لجهاد الصليبيين والإنفاق عليه . وكان طغتكين عادلا ، ولكن أبناءه أخذوا يرهقون الدمشقيين بالضرائب الاستثنائية وصنع صنيعهم حكام المدن الأخرى ، حتى إذا نهض عماد الدين زنكى واستولى على شمالى الشام ، وكان قد أصبح خرابًا من ظلم الولاة ومن حرب الصليبيين ، نشر فيه العدل وفتح الرُّها وامتلأت كل هذه البقاع أهلا وسكانا .

وخلف عماد الدين زنكى ابنه نور الدين محمودوحين خضعت له دمشق وحماة وبعلبك وغيرها من المدن الشمالية أبطل كل ماكان بها من الضرائب الاستثنائية على الأسواق ومايباع فيها من الفواكه والبقول والحلوى والغنم والجبن واللبن . وسار نفس هذه السيرة بعده صلاح الدين فألغى جميع المكوس والمغارم من ديار الشام وسامح الناس فى أموال عظيمة . ووزع فى عماله منشورا جاء فيه : إن أشقى الأمراء من سمَّن كيسه ، وأهزلُ الخلق وأبعدهم من الله من أخذ الباطل من الناس وسماه الحق . وعمَّ الرخاء فى عهده وعهد نور الدين ديار الشام لكثرة ماصبَّا فى حجور الناس من القناطير المقنطرة من أموال حملة الصليب المدحورين . وسار بعد صلاح الدين سيرته فى حط المغارم عن كواهل الناس أخوه السلطان العادل ويقال إن مجموع ماخص دمشق من ذلك لعهده بلغ مائة ألف دينار . وقد عاد بعض هذه المغارم والمكوس فى بعض بلدان الشام بأخرة من أيام الأيوبيين وخاصة فى بعلبك ودمشق حين أظلها حكم الصالح إسماعيل .

وقد يكون من المفارقات أن نعرف أنه على الرغم من الحروب التى كانت متصلة بين أهل الشام وحملة الصليب نشطت التجارة بينهما نشاطا واسعا ، فتجار المسلمين ينزلون بلادهم وحصونهم وبالمثل ينزل حملة الصليب بلاد المسلمين حاملين لسلعهم ومشترين سلعا جديدة . وكأن الحرب شىء والتجارة شىء آخر ، ويعرض علينا أسامة بن منقذ فى كتابه « الاعتبار » صورًا لافتة منّ تواصل الحياة بين العرب المدنيين والصليبيين . ورأى ذلك ابن جبير رأى العيان ووصفه فى رحلته المشهورة متعجبا قائلا : من أعجب مايحدَّث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين : مسلمين

ونصارى ، وقد يلتقى الجمعان ويتقاتلون وتجارهم تختلف بينهم دون اعتراض ، وهكذا دائما أهل الحرب من الفئتين مشتغلون بحربهم ، والناس من ورائهم – كما يقول ابن جبير – فى عافية : يتعايشون ويتبادلون السلع وعُروض التجارة ، وكان حملة الصليب يرسلون ببعض هذه العروض فى سفن لهم كانت تجوب البحر المتوسط والمحيط الأطلسى حتى السويد . وورثت الشام عنهم ذلك حين جلوا عنها فكانت تجاراتها تتغلغل فى البلاد الأوربية .

ولم نعرض حتى الآن لما كان فى المجتمع الشامى طوال هذه الحقب من فنون اللهو . وكان طبيعيًّا والشام دائما حاملة للسيف أن يشيع فيها مبكرا سباق الخيل واللعب بالصوالجة والتنافس فى إحسان الرماية . وكان أهلها يحارشون أحيانا بين الكباش والكلاب ، وكانوا يخرجون للصيد . وكانت أسواقهم تموج بالأقمشة الحريرية وبالطيب والعطور . وعُنى خلفاؤها الأمويون مبكرين بالغناء وبدأ ذلك منذ عبد الملك بن مروان الذى استقبل ابن مِسْجح مغنى مكة وغنَّاه الغناء المتقن على نحو ما أشرنا إلى ذلك فى كتابنا الشعر والغناء فى المدينة ومكة واستقبل أيضا بُدَيْحًا واستمع إلى غنائه ، واستقبل ابنه الوليد بعده ابن سُرَيج مغنى مكة . وتحول يزيد بن عبد الملك بقصره إلى مسرح لمغنى الحجاز من أمثال معبد وابن عائشة ، واشترى جاريتين من جوارى المدينة المغنيات ، وهما حَبابة وسَلَّامة القَسّ ، ووصفه أبو حمزة الخارجى ، فقال إنه يشرب الخمر ويلبس الحُلَّة قُوِّمتْ بألف دينار .. حَبابة عن يمينه وسلامة عن يساره » . ونشأ ابنه الوليد فى هذا الجو المشبع بالترف والخمر والغناء ، وكان شاعرا بارعا ، وله خمريات تكتظ بها ترجمته فى كتاب الأغانى ، وحين استولى على مقاليد الخلافة بعد عمه هشام تحول بقصره إلى مقصف للخمر والعزف والغناء ، وندماؤه من حوله يشاركونه قصفة ولهوه وطربه ، وكاد أن لايترك مغنيا مشهورا فى المدينة أو مكة إلا استقدمه وعقد له فى قصره مجالس للطرب والسماع ، ويقول أبوالفرج فى ترجمته إنه « كان يضرب بالعود ويوقِّع بالطبل ويمشى بالدُّفِّ على مذهب أهل الحجازِ » .

ولا ريب فى أن شيئا من ذلك كان ينعكس على أهل الشام فى دمشق وغير دمشق . إذ يوجد فى كل زمن منحرفون ينغمسون فى اللهو والخمر وشرب الدِّنان ، وكان يهيئ لهم ذلك فى الشام كثرة مايزرع فيها من كروم وكثرة ما كان بها من أديرة . وكانوا يشربون فى الطبيعة بين الأزهار وغناء الطير وفى قاعات الأديرة والبيوت ، وكانوا يفرشون القاعات بالورود والنرجس والأقحوان والأزهار المختلفة . وكان يكثر فى تلك المجالس سماع المغنين والمغنيات وهم يعزفون على آلات الطرب المختلفة . ويسوق ابنُ حِجَّة الحموى فى كتابه ثمرات الأوراق خبرا طويلا عن جماعة من

كتاب القرن الرابع الهجرى كانوا قاصدين مصر. فنزلوا بدمشق فى طريقهم ، والتقوا فيها بشاب أضافهم . فقبلوا الضيافة وأمضوا فى منزله ليلة ماجنة أحضر لهم فيها نبيذًا على عَشائهم ، فشربوا ، وسرعان ماخرجت عليهم طائفة من الجوارى مابين عوَّادة وطنبورية وزامرة وصنَّاجة ورقَّاصة ودفَّافة وهن يلبسن فاخر الثياب والحليّ وسألهم فى الصباح أتحبون الذهاب إلى بعض البساتين للتفرج أو الجلوس فى المنزل واللعب بالشطرنج والنَّرْد أو القراءة فى الكتب . والخبر تداخله مبالغات تجعله أشبه بأسطورة ، لكنه على كل حال يدل على ماكان بدمشق من فنون لهو .

ولا ريب فى أن حرب أهل الشام بعد ذلك مع حملة الصليب أتاح لهم كثرة من الجوارى الأوربيات المسترَقَّات . ويبدو أنهن كن من عوامل شيوع البِغاء ، إذ نقرأ فى تراجم نور الدين وصلاح الدين والعادل أنهم طهَّروا البلاد من الفواحش والخمور والقمار . وكانت هناك دور النخاسين تحمل الجوارى من كل جنس وكل بلد . ويدل على كثرة الجوارى فى الشام من بعض الوجوه أن نجد فقيها دمشقيا توفى سنة ٦٣٢ هو عبدالسلام بن المطهر بن أبى عصرون يروى عنه أنه كان ببيته نيف وعشرون جارية فما بالنا بأهل الثراء وبالحكام وكبار الموظفين ذوى الرواتب الضخمة .ولم يقف المنحرفون بالمجتمع فى لهوهم حينئذ عند شرب الخمر . فقد أخذ يشيع بينهم شرب الحشيس ، ولذلك أمر الظاهر بيبرس فى سنة ٦٦٥ بهدم دور الحشيش والخمر جميعا وإقامة الحدود بشدة على من يتعاطونهما . ومن حين إلى آخر نسمع عند بعض السلاطين بمثل هذا الأمر ، ولكن المجَّان كانوا يعودون إلى تعاطيهما ولا يزدجرون . وظل الغناء مزدهرًا طوال زمن المماليك ، ونجد مغنيا بدمشق يلزم واليها تنكز نائب الناصر محمد بن قلاوون ويختص به ويعلم جواريه الغناء ، وكان يعاصره شمس الدين الدمشقى محمد بن على وكان يجيد العزف واللعب بالقانون وينظم الشعر ويلِّحنه ويأخذه عنه الملحنون وأهل الملاهى .

وظلت الشام تعيش فى رخاء إلى نهاية القرن الثامن الهجرى إلا فترات كانت تدب فيها وخاصة فى دمشق الفوضى بسبب ما كان يحدث فيها من نزاع بين الأمراء على السلطة كما حدث فى السنوات ٧٥٣و٧٦٢ و٧٩٠ و٧٩٦ و٨٠١ ولعل هذا كان أحد العوامل فى انتصار تيمور لنك السريع على المدافعين عن حلب وما وراءها من البلدان إلى دمشق ، وقد عاث جنوده فيها – كما مرَّ بنا – نهبا وسفكا للدماء . وعلى الرغم من أن دمشق استسلمت له بميثاق أو عهد أخذه على نفسه أن لا يمس أهلها بأذى لم يكد يدخلها مع جنده حتى نكث عهده وميثاقه فسبى جنوده النساء وشدوا الرجال والأولاد فى حِبال وأشعلوا النار فى المنازل والدور والمساجد ثلاثة أيام فاحترَقَت المدينة ، وسقطت

سقوف الجامع الأموى وصارت دمشق أطلالا عافية أو بالية ، بعد أن كانت فردوسا من فراديس الجنان ، وهى طامة كبرى ظلت دمشق تعانى منها طويلا . وزاد تيمور لنك الطين بلّة بتجريد دمشق – كما مرَّ بنا من صفوة صناعها ومهندسيها ، إذ أخذهم معه الى عاصمته سمرقند . وحاول سلاطين المماليك بعد خروجه من دمشق لحرب السلاجقة فى آسيا الصغرى أن يعيدوا لدمشق والشام شيئا من الرخاء بإلغاء المغارم والمكوس وكل ما كان يبهظهم من الضرائب الاستثنائية .

واستعادت دمشق مبانيها وعمارتها بعد تيمور ، ولابد أنها ظلت تعانى من خسائر الحريق وأنقاض عمائرها الباذخة فترة طويلة . وسرعان ما نسمع أنه أصبح بها مائة حمام . وشاد حكامها فيها قصورا فخمة على مر السنين ، واتسع ذلك فى بلدان الشام جميعا : من حلب شمالا إلى غزة جنوبا ، وبدأ ذلك منذ أوائل عهدها بالاسلام لزمن الأمويين ، فإن خلفاءهم وأمراءهم وبعض نسائهم شادوا فى دمشق لأنفسهم قصورا باذخة ، وامتد ذلك إلى حلب وغير حلب من مدن الشام وإلى البوادى . وظلت هذه العناية بتشييد القصور لحكام الشام على مر السنين ، ومر بنا أن خمارويه بنى لنفسه بجوار دمشق قصرًا ، وتتابع بناء حكام دمشق وبلدان الشام للقصور ، سوى ما كانوا يبنون من المساجد والخانقاهات والمارستانات والمدارس . وتحدث المؤرخون طويلا عن قصر أنيق بدمشق بناه الظاهر بيبرس . وعُنى الصليبيون ببناء الحصون كما عنى الأيوبيون والمماليك ببناء المساجد والمدارس والرباطات والمارستانات والقلاع والجسور وكان لكل ذلك أثر واسع فى نشاط الحياة بالشام ورواج الصناعة والتجارة .

وترزح الشام – كما رزحت مصر – تحت حكم العثمانيين ، ويظلون بها أربعة قرون ، ويتقوض كل أمل لأهل الشام فى تدارك الأمور ، وبدأ ذلك الغزالى نائب سليم بما أخذ يفرض على أهل الشام من ضرائب ثقيلة ، وزال حكمه ، كما مر بنا ، وظلت المكوس تزداد وظلت البلاد تتردى من سيىء إلى أسوأ إذ دأب العثمانيون على التغيير السريع لحكامهم فى البلاد ، ودأب الحكام على اعتصار خيراتها حتى آخر قطرة . وكانت الدولة العثمانية تدفع إلى استنزاف كل ما فى ديار الشام من أموال وظلموا الناس أشد ظلم ، بل نهبوهم أعسف نهب وابتزوا أموالهم أسوأ ابتزاز . وهيأ ذلك لمظالم لاتطاق فى المدن بين الصناع والتجار وفى القرى بين الزراع ، مما جعل بعض الفلاحين يفرون من قراهم إلى الجبال أو ينزلون عن ممتلكاتهم فيها إلى بعض ذوى الجاه مفضلين أن يعيشوا فقراء على معيشة الحرية التعسة المنتهكة . وانتكست بذلك الزراعة ، ولم تعد هناك عناية بإنتاج القطن

والحرير ، فانتكست أيضا الصناعة والتجارة . وزاد فى انتكاس التجارة اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح واستعمارهم للهند وحملهم عُروضها وتوابلها عن هذا الطريق مستغنين بذلك عن طريق الشام ومصر القديم . وبذلك فقدت الشام فى أيام العثمانيين موردا ماليا ضخما كان على رأس مواردها التى أتاحت لحكامها بناء منشآتهم المعمارية الكثيرة من الأسوار والقلاع والحصون والقصور والمساجد والمدارس . وعم الكساد الشام طوال الحقب العثمانية . بل عم البؤس والظلم والخراب ، كما عمت الفوضى الإدارية ، وكلما تقدمنا دورة زمنية مع الحكم العثمانى ازدادت الشام انتكاسا وفسادًا وظل ذلك سائدًا طوال زمن العثمانيين حتى القرن التاسع عشر بل حتى نهاية حكمهم .

٥

التشيع : الإسماعلية والإمامية –النصيرية– الدروز– الإسماعيلية النزارية أو الفداوية أو الحشاشين .

(١) الإسماعلية والإمامية

مرَّ بنا – فى كتاب العصر العباسى الثانى – أن عبدالله بن ميمون القداح اتخذ سَلَمْيَة قرب حماة بالشام حوالى منتصف القرن الثالث الهجرى مركزا للدعوة الإسماعيلية التى كانت تجعل الإمامة بعد جعفر الصادق فى ابنه إسماعيل لا فى ابنه موسى الكاظم مخالفين بذلك فرقة الإمامية الاثنى عشرية الشيعية . وانتقلت بعد إسماعيل فى أئمة مستورين ، إلى أن فرَّ المهدى بالله من سلمية إلى تونس وأسس هناك الدولة الفاطمية وصار إليها حكم مصر والشام منذ أواسط القرن الرابع الهجرى . ونشط دعاتهم فى الديار الشامية يدعون إلى عقيدتهم التى تَقْصر إمامة المسلمين على أبناء علىّ بن أبى طالب من السيدة فاطمة الزهراء ، زاعمة لهم العصمة وحق تأويل الذكر الحكيم ومعرفة أسراره ، ولذلك سموا باسم الباطنية ، وزعموا أن الأئمة يتوالون فى أدوار كل دور يتألف من سبعة منهم ، والسابع هو الإمام الناطق الممثل للعقل الكلى وإليه تنتقل قدرة الله وعنه تصدر النفوس الكلية للأئمة الستة قبله ، وأطلقوا اسم الذات العلية وكل صفات الله على أئمتهم .

وعرفت الشام بجانب العقيدة الإسماعيلية العقيدة الإمامية أو الاثنا عشرية التى يتوالى فى الإمامة بها عندهم اثنا عشر إماما يختمون بالإمام أبى القاسم محمد الذى اختفى وهو فى الثامنة من

عمره حوالى سنة ٢٦٠ ويؤمنون بأنه لايزال حيا باقيا وأنه لابد من عودته يوما أو رجعته ليهدى الناس إلى طريق الرشاد ويعيد سنن الرسول ﷺ ويرد حق أسرته المسلوب ويملأ الدنيا حقا وعدلا ، ويسمونه فى أثناء غيبته الجسدية قائم الزمان وإمام الوقت . وهو بذلك كله المهدى المنتظر الذى ينقذ العالم من مفاسده وشروره . وعند الإمامية أن أئمتهم وحدهم يتميزون بمعرفة المعانى الباطنة أو المستترة وراء ظاهر النصوص القرآنية ، ولذلك يعد التأويل من أسس العقيدة الإمامية ، ويرون أئمتهم فوق الطبيعة البشرية ، ولذلك يعتقدون فيهم العصمة وأنهم مطهرون لايستهويهم أى ضرب من ضروب المعاصى والآثام .

وإذا كان مركز العقيدة الإسماعيلية منذ أوائل هذا العصر فى القرن الرابع مصر فإن مركز العقيدة الإمامية كان العراق وإيران . وكان قرب معتنقيها من الشام سببا فى أن يدخلها كثيرون منه منذ وقت مبكر وكانوا ينبثون فى حلب وأيضا بين بعلبك وصفد ، ويسمون باسم المتوالية الإمامية ومنهم أمراء حرفوش . ونقف لنتحدث عن فرق شيعية غالية هى فرق النصيرية والدروز والإسماعيلية النزارية المسمون بالفداوية والحشاشين .

(ب) النُّصَيْرِيَّة[1]

فرقة شيعية غالية غلوًّا مفرطًا ، ولم تكن تتبع الفرقة الإسماعيلية ، بل كانت تتبع الفرقة الإمامية الاثنى عشرية ، أو قل إنها تفرعت منها ، وكانت تسكن فى قرى بسفوح الجبال الممتدة من طرابلس إلى أنطاكية أنشأها فيها داعية يسمى محمد بن نصير النميرى زعم لهم أنه مبعوث الإمام الحادى عشر حسن العسكرى وأخذ ينشر فيهم عقيدته منفصلا بها عن العقيدة الإمامية إذ جعل مبدأها أو محورها الأساسى ألوهية على بن أبى طالب وأنه خالد فى طبيعته الإلهية ومسكنه السحاب ، والرعد إنما هو صوته الهائل ، والبرق إنما هو ضحكه العالى ، ولايلعنون ابن ملجم قاتله ، بل يقولون إنه خلّص اللاهوت أو الجزء الإلهى من الناسوت أو الجسم المادى ، ويعظمون الخمر ويرونها من النور الإلهى ، ويحتفلون بالأعياد المسيحية ويزعمون أن سلمان الفارسى إنما كان رسولا لعلى بن أبى طالب ، ويحلفون بعلى قائلين : وحق على العلىّ الأعلى ، كما يحلفون بالنور

(١) انظر فى النصيرية فرق الشيعة للنوبختى والملل والنحل للشهرستانى وصبح الأعشى ١٣/٣٥ ، ٢٤٩ والتعريف لابن فضل الله العمرى ورحلة ابن بطوطة وحديثه فيها حين زار ديارهم بالشام عن عقيدتهم وكتاب العقيدة والشريعة فى الإسلام لجولدتسهير ص ٢٢٠ ومابعدها وتاريخ النصيرية وديانتهم لدوسو طبع باريس .

قائلين وحق النور وما نشأ منه . وواضح أنه تختلط بعقيدتهم عناصر فارسية كعنصر النور وعناصر مسيحية كعنصر قداس الخمر والطعام وهو شبيه بالعشاء الربانى ، ويروون عن الرسول ﷺ أنه قال لعلى : « لولا أن يقول الناس فيك ماقالوا فى عيسى لقلت فيك مقالا » وهو حديث موضوع .

ويقول النوبختى فى فرق الشيعة وابن فضل الله فى التعريف إنهم يحلُّون المحارم ، ولهم كتاب مقدس يخفونه عن الناس كما يخفون عقيدتهم ولا يبيحون لأحد منهم أن يذيع شيئا من مبادئها وأسرارها المصونة عندهم . ويقول الشهرستانى إنهم يقولون بأن عليا كان موجودا قبل خلق السموات والأرض ، وأن الإله ظهر بصورته وخلق بيديه وأمر بلسانه . ولكل ماسبق قال جولد تسيهر : « تغلب على تلك الفرقة أفكار وعقائد وثنية » ويقول « إن إسلامها إسلام اسمى فحسب » . ونظن ظنا أن استيلاء الفاطميين على الشام ونشر دعاتهم لنحلتهم الغالية المفرطة فى الغلو هناك . ثم ما كان من انشغال الأيوبيين بحربهم لحملة الصليب ، كل ذلك كان سببا فى اتساع حركتهم حتى إذا كان عهد الناصر بن قلاوون رأيناه يكتب فى سنة ٧١٧ للهجرة إلى ولاته فى الشام أن يأخذوا على أيديهم، ويأمروهم أن يعمروا فى كل قرية من قراهم مسجدا وأن يمحوا منها الخمور وكل ما يتصل بالآثام، وصدعت قراهم لأمره.

(جـ) الدروز [1]

الدروز فرقة شيعية تفرعت عن الفرقة الإسماعيلية الكبرى ، آمنت بأن التجسُّد الإلهى حلَّ فى الحاكم بأمر الله (٣٨٦ – ٤١١هـ) أسسها أو أنشأها بالشام داع إسماعيلى أعجمى سن دعاة الحاكم يسمى محمد بن إسماعيل الدرزى ، وكان من غلاة الدعاة الباطنية يؤمن بالتناسخ ، فأغوى الحاكم على ادعاء هذا التجسد ، وصَنَّف له كتابا ذكر فيه أن روح الله مازالت تنتقل من رسول إلى رسول ، وبعد النبى ﷺ انتقلت إلى على بن أبى طالب وتناسخت فى الأئمة من أبنائه حتى انتهت إلى الحاكم ، فهو ليس بشرا ، إنما هو لاهوت تجسد فى الناسوت . وعلمت الرعية فى مصر بما يوسوس له الدرزى فصممت على قتله ، وأنقذه منها الحاكم وقال له اخرج إلى الشام وانشر دعوتك فى الجبال فإن أهلها سريعو الانقياد ، فخرج إلى الشام ونزل فى قبيلة تنوخ بوادى التيم من

---

(١) راجع فى الدروز صبح الأعشى ٢٤٨/١٣ وكتاب وجولد تسيهر ص ٢١٦
طائفة الدورز : تاريخها وعقائدها للدكتور محمد كامل حسين

وديان قرية بانياس غربى دمشق ، وأخذ ينشر دعوته فى منازل تلك القبيلة بجبل حوران وأيضا فى القسم الجبلى من لبنان . وتوفى فقام بالدعوة بعده حمزة بن أحمد الهادى وكثر أتباعها وعُرفوا بالدروز نسبة إلى مؤسس الدعوة . وانتشارُها على هذا النحو فى جبل لبنان وحوران بسوريا جعلها تذيع بين قبائل وعشائر عربية ، وسقطت إلى الجنوب حتى جبل كَرْمَل بالقرب من صَفَد فى فلسطين ، وصعدت إلى الشمال حتى الجبل الأعلى بين حلب وأنطاكية . وأتاح لها ذلك أن تشيع بين عرب ذوى بأس وأهل شجاعة ، ومنذ وطئت أقدام الصليبيين الشام وضعوا أيديهم فى أيدى الدولة البوريّة صاحبة دمشق ثم فى أيدى عماد الدين زنكى ونور الدين وصلاح الدين ضد حملة الصليب . وظلوا يجاهدونهم فى زمن الأيوبين والمماليك متعاونين أوثق تعاون مع سلاطين الدولتين فى طردهم من الشام . وأبلوا بلاء حسنا فى حرب التتار . ولعل ذلك هو الذى دفع الدولتين إلى مسالمتهم والإبقاء عليهم مع إقرارهم على إقطاعاتهم ، حتى يظلوا غُصَّة فى حلوق أعداء الإسلام والعروبة .

ولديهم رسائل مقدسة لمؤسس دعوتهم محمد بن إسماعيل الدرزى وخليفته حمزة بن أحمد وتلميذه بهاء الدين . ويردد حمزة أن للحاكم بأمر الله حقيقة لاهوتية لاتدركها الحواس ولا الأوهام ، ويقول إنه ليس له مكان وإن حل فى كل مكان . وحاول هو وأستاذه الدرزى وتلميذه بهاء الدين أن يقنعوا الناس من حولهم بأن الحاكم تجسُّدٌ إلهى وأنه يتشكل فى صورة بشرية هى الصورة الإنسية التى عاش بها مع الناس كأنه فرد مثلهم . وليس الحاكم أول صورة بشرية تشكل فيها الله بل هو آخر صورة تجسد فيها ، فقد تجسد قبله فى الأنبياء والأئمة مما يفسح عند الدروز لفكرة التناسخ . ويصور القلقشندى عقيدتهم قائلا : « إنهم يقولون بأن الألوهية انتهت إلى الحاكم وتديرت (سكنت) ناسوته كما يقولون برجعته وإنه يغيب ويظهر بهيئته ويقتل أعداءه قتل إبادة لامعاد بعده إذ ينكرون المعاد » . فلا معاد عندهم ولا بعث ولاقيامة ، إذ القيامة فى رأيهم يوم رجعة الحاكم وظهوره فى صورته اناسوتية ، وحينئذ يوقع العذاب والثواب على الناس ، أما الثواب فارتفاع بالدرجة فى العلوم الدينية ، وأما العذاب فهب بالدرجة إذ يستمر الشخص ينتقل من جسد إلى جسد أو قل تستمر روحه تنتقل فى أجساد تهبط به فى الدين درجة بعد درجة .

وتُسْقط شريعة الدروز الفروض الدينية وتوجب صيام الأيام التسعة الأولى من شهر ذى

الحجة ، ويقول القلقشندى إنهم يذهبون مذهب الطبائعية فى قولهم إن الطبائع هى المولِّدة ، والموتَ بفناء الحرارة الغريزية كانطفاء السراج بفناء الزيت ، ويقول : إنهم زادوا فى البسملة أيام الحاكم : باسم الحاكم الله الرحمن الرحيم ، ثم جعلوها باسم الله الحاكم الرحمن الرحيم . ولهم أدعية خاصة يتجهون بها إلى ربهم ، من ذلك مانقله الدكتور محمد كامل حسين من رسالة البلاغ والنهاية فى التوحيد لحمزة بن أحمد من مثل : « سبحان مولانا جلَّ ذكره عن إحاطة الأشياء به وعز سلطانه عن حكومة الألسن والأوهام عليه لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » .

على أنه ينبغى أن نعود فنذكر أن عقيدة الدروز أصابها بعض التعديل فى فروعها بمايتلاءم والإسلام ومن أهم من عملوا على ذلك عبدالله التنوخى الملقب بالسيد المتوفى سنة ٨٨٤ وقد حاول العودة بهم إلى مذهب الجماعة .

(د) الإسماعيلية[1] النزارية أو الفداوية أو الحشاشون

مرَّ بنا فى الحديث عن التشيع بإيران فى الجزء الخامس من تاريخ الأدب العربى أن داعية من دعاة الحركة الإسماعيلية الفاطمية بإيران هو الحسن بن الصبَّاح زار مصر لعهد المستنصر (٤٢٧ – ٤٨٧هـ) وسأله من الخليفة بعدك ؟ فقال له : ابنى نزار ، فعاد إلى إيران يدعو للمستنصر وابنه نزار ، واستطاع مع طائفة من أتباعه أن يستولى على قلعة « ألموت » الجبلية الشاهقة ، واتسعت دعوته حتى ضم إليه قلاعا وحصونًا كثيرة بإيران وبعض بلدانها فى قزوين وطبرستان . وكانت الأمور تتطور بالقاهرة فتوفى المستنصر ورأى الأفضل بن بدر الجمالى أن لا يولى نزارا بعده وإنما يولى أخاه المستعلى . وبذلك انقسمت الإسماعيلية الفاطمية قسمين : قسما عربيا فى مصر والشام بيده مقاليد الحكم يدعو للمستعلى وقسما شرقيا فى إيران يمثله الحسن بن الصباح يدعو لنزار .

واستطاع الحسن بن الصبَّاح أن يحول فرقته أو طائفة كبيرة منها إلى فرقة إرهابية مهمتها اغتيال خصوم الدعوة من حكام الأقاليم والدول ووزرائهم ومن العلماء والفقهاء المناوئين لها ، وكان ممن اغتالوه الوزير السلجوقى العظيم نظام الملك سنة ٤٨٤ . ومن أجل ذلك أطلق على اسم هذه الفرقة

---

(١) انظر فى هذه الفرقة وقلاعها بالشام ونشأتها صبح الأعشى ١٢١/١ و١٤٦/٤ و١٧٩ ورحلتى ابن جبير وابن بطوطة وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٢٨٢ ، ٣٥٥ ، ٣٦٦ وكتاب طائفة الإسماعيلية : تاريخها . نظمها . عقائدها للدكتور محمد كامل حسين .

اسم الفدائيين أو الفداوية كما غلب اسم الحشاشين لأنهم – فيما يظهر – كانوا يتعاطون الحشيش المخدر . وعمل الحَسَن بن الصبَّاح على نشر الدعوة الإسماعيلية لا فى أقاليم إيران فحسب ، بل أيضا فى إقليم الشام ، فأرسل إليها دعاته ، وبادر بإرساله الحكيم المنجم أسعد إلى حلب فى أيام حاكمها رضوان بن تُتش السلجوقى (٤٨٨ – ٥٠٧ هـ) فنشر بها الدعوة وكثر أتباعه وأوعز إلى بعض الحشاشين معه باغتيال جناح الدولة صاحب حمص ، واغتيل سنة ٤٩٦ . ووفد على حلب داعية ثان للحسن بن الصباح هو أبوطاهر واستولى مع شيعته على حصن قامِيَة من الصليبيين ثم استردوه منه . وأخذ الفدائيون من فرقة ابن الصباح يفدون على الموصل والشام واغتالوا فى سنة ٥٢٠ صاحب الموصل آق سنقر . وفى نفس السنة وفد على دمشق نزارى من ألموت ، وتقرب من طُغْتِكين صاحبها ، وتنازل له عن قلعة بانْياس فأخذ يدبر دعوته منها ، وكثر أتباعه ، وأدخل المردغانى وزير بورى (٥٢٢ – ٥٢٦) فى دعوته فعيَّن أحد رجاله ، وهو أبوالوفا قاضيا لقضاة دمشق . وبعث أبوالوفاء سرا لبلدوين الثانى صاحب بيت المقدس أنه على استعداد لتمكينه من الاستيلاء على دمشق فى نظير تنازله له عن صور ، وقدم حَمَلةُ الصليب إلى دمشق سنة ٥٢٤ لتنفيذ المؤامرة وفطن بورى فقتل أبا الوفاء ووزيره المردغانى ، ورد الله حَملة الصليب عن دمشق مدحورين .

وأخذ الإسماعيليون النزاريون فى بانياس يمكنون لأنفسهم بالاستيلاء على طائفة من القلاع فى السفوح الشرقية لجبال النصيرية بالقرب من طرابلس إلى الشمال بينها وبين حماة ، حتى إذا خلص الأمر لرشيد الدين سنان منذ سنة ٥٥٨ أخذ ينظم هذه الجماعة الإرهابية الخطيرة جاعلا من قلاعها وهى مصياف والرصافة وقُدْموس والخوابى والكهف والمَيْنَقة والعُلَّيْقة ، مركزًا للدعوة . ويُعدّ دوره فى الدعوة بالشام كدور الحسن بن الصبَّاح فى إيران ، فقد ضاعف تحصينات قلاعها وزودها بالسلاح والعتاد ، وكان سنان مباينا لنور الدين ولم يحاول أن يساعده فى حربه لحملة الصليب ، وفكر نور الدين فى منازلته ولكنه توفى قبل تحقيق فكرته . وبالمثل كانت بين سنان وصلاح الدين مباينة ، وأرسل إليه بعض فدائييه أو حَشَّاشيه مرتين ليغتالوه ونجَّى الله صلاح الدين من خناجرهم ، وجرَّد لهم فى سنة ٥٧٢ جيشا جرارا حاصر به قلاعهم وضيق عليهم ، فسألوه الصفح عنهم ، فأجابهم إلى ذلك ليتفرغ سريعا لحرب حملة الصليب مؤملا أن يمدوا له يد العون فى تلك الحرب ، وكانوا قد وعدوه أن يقفوا معه ضدهم ، فلم يتعرض صلاح الدين بعد ذلك لقلاعهم .

ونمضى معهم إلى أيام هجوم التتار على الشام فنجد داعيتهم أبا المعالى رضى الدين يرضخ لهم ويسلمهم بعض القلاع سنة ٦٥٨ بينما ظل الدروز يقاومون التتار – كما مرَّبنا – ولعل ذلك ماجعل الظاهر بيبرس بعد قضائه على التتار يفكر فى الاستيلاء على قلاعهم منذ سنة ٦٦٤ وسرعان ما أعلنوا له الطاعة وأنهم جزء من رعيته . وفى سنة ٦٦٩ عزل داعيتهم نجم الدين وولى مكانه داعية ثانيا يسمى صارم الدين ، غير أنه أعلن الثورة عليه ، وسرعان ما أخفقت ثورته . وأخذ الظاهر بيبرس يستولى على قلاعهم حتى سلمت له وخضعت جميعا ، ولم يعمد إلى إجلائهم عن قلاعهم كما صنع هولاكو حين استولى على قلعة ألموت وغيرها من قلاعهم بإيران ، بل أبقى عليهم ليفيد من سفاكيهم فى القضاء على خصومه . وظل سلاطين المماليك بعده يستخدمونهم لنفس الغاية .

ويسجل ذلك ابن بطوطة حين زار حصونهم لعهد الناصر بن قلاوون سنة ٧٢٧ إذ يقول : « وهذه الحصون لطائفة يقال لها الإسماعيلية ، ويقال لهم الفداوية ، ولايدخل عليهم أحد من غيرهم ، وهم سهام الملك الناصر بهم يصيب من يعدو عليه من أعدائه ، ولهم المرتبات ، وإذا أراد السلطان أن يبعث أحدهم إلى اغتيال عدو له أعطاه ديته ، فإن سلم بعد تأدية مايراد منه فهى له ، وإن أصيب فهى لولده » . ويقول القلقشندى نقلا عن ابن فضل الله العمرى المتوفى سنة ٧٤٩ للهجرة : « ولصاحب مصر بمشايعة الفداوية مزية يخافه بها عدوه ، لأنه يرسل منهم من يقتله ولايبالى أن يُقْتل بعده ، ومن بعثه السلطان إلى عدو له فجبن عن قَتْله قَتَله أهله إذا عاد إليهم ، وإن هرب تبعوه وقتلوه » . وبالقاهرة جامع منسوب إلى هذه الجماعة الإرهابية يسمى جامع الفداوية ، ويقال إن الفداوى الإرهابى الخطير الذى كان يعتمد عليه بيبرس هو « شيحة » المدفون بدمياط .

٦

الزهد [١] والتصوف

الشام – من قديم – بلد دين سماوى ، بل دينين سماويين هما اليهودية والمسيحية ، مما جعل لها تأثيرًا بعيدًا فى تاريخ العالم الروحى ، إذ عملت بقوة على نقله من دور الوثنية إلى دور الديانات السماوية ، وبدأ ذلك منذ أعتق الأزمنة ونقصد زمن إبراهيم الخليل عليه السلام الذى آمن بوحدانية الله ، وحاول أن يحمل عليها قومه ، وتتابعت بعده الرسل تؤكد دعوته وتدعو إلى عبادة الله وإعلاء القيم الروحية ، حتى إذا كانت المسيحية وأدخلت فيها مصر نظام الرهبنة والمعيشة الخالصة لتعبد الله والنسك فى الأديرة والصوامع عَمَّت هذه الروح فى الشام واعتزل كثيرون منه – فى أيام الرومان الظالمة – الحياة اليومية العاملة إلى الرهبنة . وتعتنق كثرة السكان فى الشام الدين الحنيف ويقبلون على تعاليمه وعبادة الله الواحد الأحد حق عبادته وعلى ماتدفع إليه من النسك والتقوى ، مقتدين بمن نزل بينهم من جلّة الصحابة وبخاصة من أهل الصُّفَّة الذين كانوا يلازمون المسجد النبوى مقبلين على عبادة الله زاهدين فى الدنيا ومتاعها الزائل من أمثال بلال بن رباح مؤذن الرسول ﷺ وأبى عبيدة فاتح الشام مع خالد بن الوليد ، وكان على غرارهما زهدا فى الدنيا معاذ بن جبل المتوفى مع أبى عبيدة فى سنة ١٨ للهجرة بطاعون عمواس ، ويؤثر عنه أنه كان يقول حين نزل به القضاء : « مرحبا بالموت ، مرحبا بزائر حبيب جاء على فاقة ، اللهم إنك تعلم أنى كنت أخافك ، وأنا اليوم أرجوك ، وإنى لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكَرْى الأنهار ولا لغرس الأشجار ولكن لظمأ الهواجر ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالرُّكب عند حلقات الذكر » .

---

(١) انظر فى الزهد والتصوف بالشام كتب تراجم الصحابة ، وبخاصة من سميناهم ، وراجع فى معاذ تهذيب النووى وفى أبى الدرداء البيان والتبين للجاحظ : الجزء الثالث (انظر الفهرس) وانظر فى الأسماء التالية طبقات الصوفية لأبى عبدالرحمن السلمى والطبقات الكبرى للشعرانى والرسالة القشيرية (طبعة عبدالحليم محمود) وكشف المحجوب للهجويرى (الترجمة العربية) وتهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر وأحسن التقاسيم للمقدسى والسلوك للمقريزى والدرر لابن حجر والأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة ، الجزء الخاص بمدينة دمشق (تحقيق د. سامى الدهان) ووفيات الأعيان وفوات الوفيات فى تراجم بعض المتصوفة والزهاد وابن تغرى بردى والبدر الطالع للشوكانى وروض الرياحين لليافعى وخلاصة الأثر للمحبى وسلك الدرر للمرادى وتاريخ الجبرتى وجولد تسيهر ودائرة المعارف الإسلامية والجزء الرابع من تاريخ الأدب العربى لبروكلمان

وعلى شاكلة معاذ فى الورع والتقوى من صحابة رسول الله ﷺ الذين هاجروا إلى الشام أبو الدرداء الأنصارى ، وهو أحد حفظة القرآن الكريم لعهد الرسول وأول من تقلد القضاء بدمشق إلى أن توفى سنة اثنتين وثلاثين للهجرة ، وهو من أهل الصُّفَّة الأتقياء ، ويروى الجاحظ عنه أنه كان يقول « نعم صومعة المؤمن منزل يكفُّ فيه نفسه وبصره ، وإياكم والجلوس فى الأسواق فإنها تلهى وتحمل على اللغو فى الكلام » ويروى عنه أيضا قوله : « أضحكنى ثلاث وأبكانى ثلاث : أضحكنى مؤمل الدنيا والموت يطلبه ، وغافل لايُغْفَلُ عنه ، وضاحك ملء فيه ولايدرى ساخطٌ ربه أم راض ، وأبكانى هول المطَّلع [١] ، وانقطاع العمل ، وموقفى بين يدى الله لَايُدْرَى أيُؤْمر بى إلى الجنة أم إلى النار » . وأخذ يتكاثر بعد جيل الصحابة فى الشام العباد والأتقياء ونلتقى بهم فى كل طائفة : فى القضاة والفقهاء والمحدِّثين وقرَّاء الذكر الحكيم .

واتسع ذلك حتى شمل بعض الحكام على نحو ماهو معروف عن الخليفة عمر بن عبدالعزيز وهو يمثل نموذج الحاكم المتقشف الزاهد الذى يخشى الله فى كل مايصدر عنه من قول أو فعل ، ومرَّ بنا أنه رفع المكوس وضرائب السدود والمعابر عن الناس وأنه سَوَّى بين المسلمين الجدد من الموالى والمسلمين من العرب فحطَّ عنهم – مثلهم الجزية – واكتفى بالزكاة . وكتب إليه أحد عماله : إن أهل الذمة قد أقبلوا على الإسلام حتى يتخلصوا من الجزية ، فأجابه : إن الله بعث محمدا داعيا ولم يبعثه جابيا . ويفيض ابن سعد فى ترجمته له بطبقاته فى بيان زهده ورفضه لمتاع الجباة من رقيق يملكه ومن عطر يتطيب به . وعمل بكل جهده على نشر العدل فى دولته ورفع المظالم عن الناس . وكان يجهد نفسه فى النسك والتعبد حتى اصفرَّ لونه ونحل جسمه ، وأنكر منه بعض الزهاد ممن كانوا يلمون به ذلك فقال له : كيف بك لو رأيتنى فى قبرى وقد سالت الحدقتان – بعد ثلاث ليال – على وجنتى وتقلَّصت الشفتان لكنت إذن أشد نكرا . وطبيعى أن يكون عمر من أسباب اتساع موجة الزهد فى الشام . ونكتفى بذكر بعض من تموج بهم كتب القراء والفقهاء والتاريخ من هؤلاء الزهاد العباد . من ذلك مايقولونه عن شيبان الراعى المتوفى سنة ١٥٨ وكان من كبار الفقهاء الزهاد وكان من أكابر أهل دمشق وعكف على النسك ، وبلغ به ذلك أن ترك الدنيا واتخذ له صومعة فى جبل لبنان فانقطع بها يتعبد الله .

ونسمع كثيرا عن عباد انقطعوا بهذا الجبل مؤثرين الإقامة به للتعبد [٢] ، ومنهم من كان يتعبد الله فى جبال أنطاكية والمصِّيصة ، ومنهم من يتخذ الصوامع ، وظل ذلك متبعا حتى زمن ابن

(١) الاستشراف للآخرة (٢) راجع مقدمة أحسن التقاسيم للمقدسى .

جبير[1] . وكان منهم من لايبعد عن دمشق إلى الجبال النائية مثل فهر بن جابر الطائى المتوفى عام ٢٢٠ فإنه لما بلغ الخمسين من عمره اعتزل الناس بجوار دمشق ، وأخلص نفسه للتقوى والنسك ، وله فى الزهد كتاب سماه : « العروج فى دَرَج الكمال والخروج من درَك الضلال » . ونلتقى بمعاصره أبى سليمان الدارانى عبدالرحمن بن أحمد بن عطية المتوفى سنة ٢١٥ وفيه يقول ابن تغرى بردى : « كان من واسط وتحول إلى الشام ونزل قرية دَارَيًّا غربى دمشق ، وكان إماما حافظا كبير الشأن فى علوم الحقائق والورع أثنى عليه الأئمة ، وكان له الرياضات والسياحات ، ويقول الهجويرى : « كان ريحانة القلوب ، اختص بالرياضات الشديدة والمجاهدات الشاقة » . وتسلكه كتب الصوفية ، فى تراجمهم . ولم يكن التصوف حتى زمنه استقل عن الزهد بأحواله ومقاماته ، فهو إلى أن يكون زاهدًا أقرب منه إلى أن يكون متصوفا . وحمل عنه نزعته النسكية تلميذان أو مريدان ، هما أحمد ابن عاصم الأنطاكى وابن أبى الحوارى الدمشقى ، أما ابن عاصم فتوفى بعد أستاذه بخمس سنوات ، ويسلكه المتصوفة بين أوائلهم ويقولون إنه كان يجمع بين الأصول والفروع فى الشريعة ، وكان يقول : « أنفع الفقر ماكنت به متجملا وعنه راضيا » ويذكر بروكلمان له كتابا فى الزهد سماه « دواء القلوب ومعرفة همم النفس وآدابها » ويقول إن الغزالى ينقل عن هذا الكتاب كثيرا . وتلميذ الدارانى الثانى أو مريده ابن أبى الحَوَارِىّ أحمد توفى سنة ٢٣٠ وكان من بيت زهد ، فأبوه من الورعين وكذلك ابنه عبدالله ، وذُكر عند الجنيد متصوف بغداد فقال : « ريحانة الشام » . وكان يعاصره الشيخ أبوعبيد وان عابدا تقيا صالحا توفى سنة ٢٣٨ وقد وهب نفسه للغزو وجهاد أعداء الله .

ونلتقى فى طَرَسُوس دار حرب الروم بالشيخ أبى الحارث الفيض بن الخضر الأولاسى المتوفى سنة ٢٩٧ وكان أحد الزهاد العباد وله إشارات ولسان حلو وأقوال عالية ، وهو منسوب إلى أولاس فى نواحى طرسوس ، وكان بها حصن يسمى حصن الزهاد ، وكأنما اتخذوه رباطا لحرب أعداء الإسلام . وهو شاهد على ماقلناه مرارا فى كتاباتنا من أن زهادنا ومتصوفتنا كانوا دائما يرون من تمام تصوفهم وزهدهم أن يجاهدوا العدو ويرابطوا له فى الثغور ، حتى إذا كان نفير الحرب تقدموا الصفوف يقتلون أعداء الدين الحنيف ويستشهدون . وكان يعاصر الأولاسى أحمد بن يحيى

---

(١) يقول ابن جبير فى كلامه عن دمشق سنة ٥٧٨ كان الخير ينثال على الغرباء من الخطباء والمعلمين لا فى دمشق وحدها بل أيضا فى القرى والضياع ، ومن سمْ المقام فيها متى سمْ المقام يصعد إلى جبل لبنان أو إلى جبل الجودى (شمالى الموصل) فيلقى بهما المريدين المنقطعين إلى الله عز وجل فيقيم معهم ما شاء وينصرف إلى حيث شاء .

المعروف باسم ابن الجلَّاء المتوفى سنة ٣٠٦ تلميذ ذى النون المصرى مؤسس التصوف الإسلامى كما سنذكر ذلك فى حديثنا بجزء مصر، وتلمذته لذى النون تجعله أول متصوف شامى بالمعنى الحقيقى.

وكان ذو النون يجمع بين الشريعة وفروضها وبين الحقيقة الصوفية الروحية ، فلا تعارض بين الشرع والتصوف ، بل هما متلاحمان ، وعنه أخذ ذلك ابن الجلاَّء كما أخذ بقية مبادئه الصوفية من التوكل والحب الإلهى . ويقول ابن تغرى بردى إنه أحد مشايخ الصوفية الكبار ، ويقول مريده وتلميذه الرَّقِّى محمد بن داود : « لقيت نيفا وثلاثمائة من المشايخ المشهورين ، فما لقيت أحدا بين يدى الله وهو يعلم أنه بين يديه أهيب من ابن الجلاء » . وعاش الرقى بعده فى الشام إذ توفى بعد سنة ٣٥٠ . ومن مريديه وتلامذته فى الشام أبوعمرو الدمشقى المتوفى سنة ٣٢٠ وكان يقول : « التصوف رؤية الكون بعين النقص بل غض الطرف عن كل ناقص ليشاهَد مَنْ هو منزه عن كل نقص » يريد تعلق التصوف بالرؤية الإلهية التى يغض فيها المتصوف بصره عن كل مايشاهده فى الكون أملا فى أن يفنى فى الذات الربانية ، وذكر مترجموه أن له كتابا فى الرد على القائلين بقدم الأرواح .

ومن كبار المشايخ فى الشام أحمد بن عطاء الروذْبارى المتوفى سنة ٣٦٩ وهو ابن أخت أبى على الروذْبارىّ شيخ الصوفية فى الفسطاط ، أما هو فكان شيخ الشام فى وقته ، وكان ممن جمع بين الحقيقة وعلم الشريعة . ودخل الشام محمد بن خَفِيف الشيرازى شيخ المشايخ المتوفى سنة ٣٧١ ويحكى أنه : « دخل مدينة صُور وهو جائع عطشان وفى وسطه خرقة المتصوفة ، يقول : فدخلت المسجد ، فإذا شابَّان مستقبلا القبلة فسلمت عليهما فما أجابانى ، فقلت : ناشدتكما الله إلا رددتما علىَّ السلام ، فرفع أحدهما رأسه من مرقَّعته الصوفية فنظر إلىَّ وردَّ السلام وقال لى : يابن خفيف الدنيا قليل ومابقى من القليل إلا قليل ، فخُذْ من القليل الكثير ، فذهب جوعى وعطشى ونَصبى (تعبى) فلما كان وقت العصر قلت له : عِظْنى ، فقال : يابن خفيف : نحن أصحاب المصائب ليس لنا عظة . وربما كان أهم تلامذة أحمد بن عطاء الروذبارى ومريديه محمد بن إبراهيم السوسى شيخ الصوفية بدمشق المتوفى سنة ٣٨٦ وكان زاهدا عابدا ماعقد على درهم ولادينار . وظل كثيرون من العباد والنساك يؤثرون جبال الشام ويقيمون بين ربوعها ويذكر المقدسى الجغرافى المتوفى حوالى سنة ٣٧٥ أنه لقى فى جبل الجَوْلان شرقى الشام أبا إسحق البلوطى فى أربعين رجلا يقتاتون البلوط ، يفلقونه ويطحنونه ويخلطونه بشعير بَرِّىٍّ ويلبسون الصوف . وينبغى أن نذكر أن المتصوفة كانوا غالبا لايستقرون فى أوطانهم ، بل يرحلون سائحين للقاء مشايخ

الصوفية ، ومعنى ذلك أن الشام كانت تستقبل كثيرين منهم . وكان يحدث كثيرا أن يتخذوها دار مقام كما صنع الدارانى الواسطى وأحمد بن عطاء الروذبارى ، وغيرهما كثيرون مثل الحتلى نزيل الشام المتوفى سنة ٤٥٣ وهو أستاذ الهجويرى الغزنوى الأفغانى ، وكانت أكثر إقامته بالديار الشامية . ومعنى ذلك أن الشام كانت دائما ساحة كبرى للنسك والتقوى والعبادة .

ومانصل إلى سنة ٤٨٨ حتى ينزل الإمام الغزالى الطوسى الصوامع النائية فى مساجد بيت المقدس ، وكانت قد انتابته أزمة روحية من الخلافات العنيفة بين الفرق والملل وحتى بين الفقهاء فى فروع الشريعة . وقد أوضحنا ذلك فى حديثنا عن الزهد والتصوف بإيران فى الجزء الخامس من تاريخ الأدب العربى وكيف أخذ يحمل على الفقهاء والمتكلمين والفلاسفة ، وحمل على فرقة الإسماعيلية الشيعية حملة عنيفة فى كتابه « فضائح الباطنية » . وكان قد رأى فى موطنه ضعف الوازع الدينى عند طوائف الصوفية ، وأن جماعات منهم كانت تُسْقط عن نفسها الفرائض الدينية ، بينما كان منهم من يؤمن بالحلول والاتحاد بالله والفناء فيه . وكل ذلك أشعل بينهم وبين الفقهاء حربا شعواء ، وأخذ الغزالى يفكر فى كل ذلك على هدى ماكتبه أبو نصر السراج والقشيرى فى رسالته ، ورأى أنه لابد من الوصل بين التصوف والشرع ، فلا تصوف بدون الفرائض والنوافل ولاصلاة بدون عمل القلب والإخلاص وصدق السريرة ، وأخذ يؤلف موسوعته الرائعة « إحياء علوم الدين » بقصد تنمية الجوانب الروحية فى الفرائض الشرعية وبيان الوسائل إلى ذلك بحيث تصل النفس إلى مبتغاها من محبة الله . وأتمَّ الكتاب فى دمشق . واستقبلته استقبالا عظيما لأن متصوفتها لم يكونوا قد انحرفوا بتصوفهم إلى مزالقه التى وصفناها فى إيران ، بل كانوا دائما يجمعون بين التصوف والشريعة ، إلا من دفعته السياحة إلى ديارهم من متصوفة إيران .

على كل حال كانت إقامة الغزالى بدمشق وبيت المقدس فاتحة التئام وثيق بين الفقهاء والمتصوفة ، وزاد هذا الالتئام توثقا نزول حملة الصليب بديار الشام ، ولعل ذلك ماجعل حكامها التابعين للدولة السلجوقية يأخذون فى العناية ببناء الخانقاهات للمتصوفة ، من ذلك بناء دقاق بن تتش لخانقاه الطواويس بدمشق . ودعم هذا التصوف السنى عناية نور الدين ثم صلاح الدين وسلاطين الحكم الأيوبى ونساؤهم وأمراؤهم ببناء الخانقاهات والرُّبُط فى ديار الشام ووَقْف الرواتب والأموال التى تنفق على متصوفتها عن سعة . وقد عدَّ ابن شداد فى الجزء المنشور من كتابه الأعلاق الخطيرة الخاص بدمشق خانقاهاتها وحدها فبلغت تسع عشرة وبالمثل عدرباطاتها فبلغت أيضا تسعة عشر رباطا . وكان لايزال يخرج منها صفوف وجنود لجهاد حملة الصليب . وفى هذه

الأثناء ظهرت ببغداد طريقة صوفية سنية هى الطريقة القادرية لمؤسسها الشيخ عبدالقادر الجيلانى المتوفى سنة ٥٦١ واعتنقها كثيرون لافى العراق وحدها بل أيضا فى الشام والبلدان العربية . وتبعها ظهور طريقة صوفية سنية ثانية هى الطريقة الرفاعية لمؤسسها الشيخ أحمد الرفاعى المتوفى سنة ٥٧٨ وانتظم فيها كثيرون فى العراق والشام وشاعت سريعا فى العالم العربى .

ومعنى ذلك أن التصوف السنى الجامع بين علم الحقيقة أو علم التصوف وبين علم الشريعة أو علم الفقه وما يتصل به من السنة تداخلت عوامل كثيرة فى أن يكون هو التصوف الشائع فى الديار الشامية . وحاول التصوف الفلسفى القائم على أفكار الحلول والاتحاد بالله أن يتسرب إلى الشام عن طريق يحيى السهروردى الايرانى ، وكانت له فلسفة صوفية إشراقية ألممنا بها فى حديثنا عنه فى الفصل الرابع من قسم إيران ، وذكرنا هناك بأنه كان يؤمن بأن النبوات لا تنقطع وأن الحكيم الصوفى من أمثاله أفضل من الأنبياء ، وكفَّره فقهاء حلب وحملوا الملك الظاهر بن صلاح الدين على قتله ، فقتله سنة ٥٨٧ للهجرة .

وكان من أثر دخول الشعوذة على التصوف ، وخاصة فى إيران ، ظهور فرقة بدمشق سنة ٦١٩ تسمى القلندرية وهم أتباع قلندر يوسف ، لا يتقشفون ولا يتنسَّكون ولا يصلون سوى الفرائض ، ويحلقون لحاهم وحواجبهم . وتسرَّب ثانية إلى الشام جدول صوفى فلسفى زاخر على لسان محيى الدين بن عربى المولود بمرسية فى الأندلس سنة ٥٦٠ وقد تلقى تعاليمه فى إشبيلية وفارقها فى الثلاثين من عمره إلى المشرق لحج بيت الله الحرام . وظل فى مكة فترة ثم بارحها مطوِّفا فى البلاد العربية ودخل الأناضول « وألقى عصاه بدمشق وبها توفى سنة ٦٣٨ » . وكان إماما فى التصوف الفلسفى القائل بوحدة الوجود وصنَّف كثيرا من الكتب أهمها الفتوحات المكية والفصوص ، وله غير ديوان ، ومن أهم دواوينه ترجمان الأشواق ، وكان شاعرا مبدعا كما كان كاتبا بارعا . وعلى الرغم من اتجاهه الفلسفى فى التصوف استطاع أن ينجو من العامة والفقهاء ، فلم يحكموا عليه بالكفر أو الإلحاد كما حكموا على السهروردى ، بل لقد وجد بينهم مريدين كثيرين مما هيأ فيما بعد لكى يظل التصوف الفلسفى – على قلة – حيًّا بجانب التصوف السنى ، وكانت عباراته فى كتاباته تحتمل ظاهرا وباطنا ، ظاهرا مع السنة وباطنا مع التصوف الفلسفى ، وجعل ظاهرها كثيرين يبرئونه من تهمة الإلحاد على نحو مامر بنا فى مصر عند الشعرانى .

وتُعنَى دولة المماليك بالخانقاهات والرُّبُط وزوايا المتصوفة ، وترصد لها أموالا كثيرة ، مما كان سببا فى ازدهار التصوف وازدياد طرقه بجانب طريقتى القادرية والرفاعية السالفتين ، فشاعت فيه

كما مر بنا آنفا الطريقة القلندرية . ودخلته الطريقة المولوية ، ومؤسسها جلال الدين الرومى المتوفى سنة ٦٧٣ وتبع هذه الطريقة كثيرون . ونزل الشام عفيف الدين التلمسانى المتوفى سنة ٦٩٠ وكان صوفيا فلسفيا يؤمن بمذهب وحدة الوجود واحتمله فقهاء الشام فيما يبدو لحسن عشرته .

ولعل فقيها لم يحمل على الصوفية كما حمل ابن تيمية الحنبلى المتوفى سنة ٧٢٨ . وكان يحمل على أصحاب التصوف الفلسفى . وهذا طبيعى . وحمل أيضا على أصحاب التصوف السنى من أتباع الشيخ أحمد الرفاعى لما كانوا يأتون من أعمال شاذة كنفوذهم من النار المضطرمة ، وأكلهم الحيات وهى حية ، ولبسهم أطواق الحديد الثقيلة فى أيديهم ، ولفهم شعورهم وتلبيدها . وثار عليهم ثورة عنيفة بدمشق واجتمع الناس إليه ، فذهب بهم إلى نائب السلطان وعرَّفه ماتصنعه هذه الطائفة من بدع عجيبة ، فأمرهم بالكف عنها . أما أصحاب التصوف الفلسفى وما يتصل به من القول بالحلول ووحدة الوجود فقد أشعل ابن تيمية ضدهم نارا حامية ظل يُذْكيها بوقود جزل يزيدها لهبا واضطراما ، واصطلى النار الباجريقى محمد بن عبد الرحمن ، وكان قد تزهد وتصوف فصحبه جماعة من الأراذل ، فهوَّن لهم أمر الشرائع وأراهم بوارق شيطانية ، وكان يقول لهم : إن الرسل طوَّلتْ على الأمم الطريق إلى الله تعالى » وزعم أنه وصل فى سلوكه إلى السماء الرابعة ، وحُكم عليه بإراقة دمه فاختفى إلى أن مات سنة ٧٢٤ . ودعا إلى مقالاته بعده متصوف من متصوفة خانقاه السميساطية بدمشق يسمى عثمان بن عبد الله الدَّوْكالى ، وشاع أمره فقُبض عليه ، وكان ممن شهد عليه فقيهان كبيران هما المزِّىّ والذهبى ، فحُكم عليه بالقتل سنة ٧٤١ .

وشاعت فى الشام لأواخر القرن الثامن وأوائل التاسع الهجرى الطريقة النقشبندية ، ومؤسسها محمد النقشبندى المتوفى سنة ٧٩١ . وأخذت تشيع معها لأواخر زمن المماليك الطريقة البكتاشية التى تدين بالنظريات الحلولية ولاتقيم وزنا للسنن والفرائض الدينية وتقدس عليا والأئمة من بعده . ومنذ القرن الثامن الهجرى نحس بوضوح أن العامة تخضع لمشايخ الطرق الصوفية بأكثر مما تخضع للفقهاء وعلماء الدين ربما بسبب خضوعهم للحكام بخلاف مشايخ الطرق الصوفية فإنه لم يكن لهم أى تعلق بالدنيا وكانوا يكتفون بما يجرى على خانقاهاتهم من أموال ولم يكن الشيخ يمدُّ يده للحاكم يأخذ منه مالا . وكانوا كثيرا مايحملون على الحكام إذا رأوهم انحرفوا عن الطريق السَّوِىِّ . وتحول كثير من أتباعهم إلى دراويش يطوفون فى العالم الإسلامى ، وكان لهم أثر غير قليل فى حِفاظ العامة على الروح الإسلامية .

ونمضى إلى زمن العثمانيين فتنشط الطرق الصوفية لاهتمامهم بها ورعايتهم لها ، وتشيع معها

الطريقة الخلوتية ، ويعظم أمر الدراويش ويكثرون فى العالم الإسلامى . ومما لا شك فيه أنه كانت تكثر الطرق الصوفية المخلصة التى تعنى بالنسك والعبادة ، وإن كان من الحق أنه أساء إلى هذه الطرق الدراويش المتسولون الذين كانوا يتكففون الناس . وهم دراويش رُحّل كانوا يعيشون معيشة مطلقة ، وقد يتحللون فيها من الفرائض الشرعية . وبدون ريب كان بينهم من يتخذ الدروشة خداعا للناس ووسيلة إلى البطالة . ومع ذلك لانعدم أن نجد من حين إلى حين صوفيا حقيقيا يحاول النفوذ إلى معرفة أسرار الكون وخفاياه والتخلص من عالم الحس المادى للفناء فى عالم الحقيقة والحب الإلهى ، على نحو مانجد عند عبد الغنى النابلسى المتوفى سنة ١١٤٣ للهجرة وقد تقلب بين الطرق الصوفية وعكف على دراسة أئمة التصوف الفلسفى وغير الفلسفى ، ولقى كثيرا من شيوخ الصوفية فى لبنان وفلسطين ومدن الشام والحجاز ومصر ، وكان شاعرا كما كان ناثرا .